رواية

الرواية المسروقة

جنكو صالح تمو

دار التقدُّم

الرّوايةُ المسروقةُ

رواية

- جنكو صالح تـمُّو
- الرِّواية المسروقة
- الطَّبعة الأولى 2023م

- حقوق الطَّبع محفوظة للمؤلِّف

- تصميم الغلاف والتَّدقيق اللُّغوي: د. بسَّام جميل

الرّوايةُ المسروقةُ

رواية

جنكو صالح تمّو

دار التقدُّم

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

جميع الحقوق محفوظة للمؤلِّف

الطَّبعة الأولى

1445هـ - 2023م

دار التقدُّم

لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب
أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات
أو نقله أو استنساخه بأيِّ شكل من الأشكال
من دون إذن خطِّيٍّ من المؤلِّف

القامشلي – سورية

هاتف: 0096352440281

جوَّال: 00963936664772

الإهـــــداء

إِلى أَبي الَّذي كَانَ يُشَجِّعُني دَائِمًا.

إلى الصَّديقِ العزيزِ الدُّكتور أحمد محمَّد دللو

الفصلُ الأوَّلُ
كافيتريا التَّصفية

هبَّ واقفًا واحدٌ من هؤلاءِ الأشخاصِ الجالسينَ حولَ إحدى موائدِ طعامِ العَشاءِ، في 23 من يناير (كانون الثَّاني)، في كافيتريا التَّصفيةِ، الكائنِ في حيِّ الوسطى في مدينةِ القامشلي، مُديرًا فُوَّهَةَ معدنٍ باردٍ لِمُسدسٍ بريتا من عيارِ سبعةِ ملم، وهو سلاحٌ نصفُ آليٍّ، مُصمَّمٌ خصِّيصًا من أجلِ اشتباكِ الأفرادِ القريبينَ من بعضِهم، باتِّجاهِ صدغِهِ الأيمنِ، وقامَ ببرودةِ أعصابِ موروثةٍ بسحبِ لسانِ الزِّنادِ إلى الخلفِ، فخرجَتْ منهُ طلْقةٌ وحيدةٌ، دوَّى صوتُها عاليًا وقويًّا، وارتجَّت منها جميعُ أجزاءِ الأثاثِ بداخلِ الكافتيريا، ممَّا أدَّى إلى تناثرِ زخَّاتٍ حارَّةٍ من دماءِ المنتحرِ الطَّازجةِ فوقَ الأشياءِ جميعِها، مُلطِخةً بها الأشخاصَ المحيطينَ به في ذلكَ المكانِ، واختلطَتْ دماؤهُ مع نتفٍ صغيرةٍ من بقايا طعامٍ كانت عالقةً بأرضيَّةِ صحونِ السِّيراميكِ البيضاءِ لعشاءِ ذلكَ الاجتماعِ، ولم تسلمْ حتَّى الجدرانُ المُحيطةُ بهِ، فقد أخذَتْ

نصيبَها الكافيَ مِنَ النُّقطِ البُنِّيةِ لمخِّهِ المتطايرِ كقطعٍ صغيرةٍ كانت بحجمِ الذُّبابِ المنزليِّ، مُعلِّمةً على الجُدرانِ بشكلِ نُقطٍ وزخارفَ كأنَّها قد طُليَتْ حديثًا، وبعدَ إطلاقِ الرَّصاصةِ اليتيمةِ، هوى الرَّجلُ صريعًا من فوقِ كُرسيهِ على الأرضيَّةِ الصُّلبةِ للمحلِّ، وعلى الفورِ أصبحَ كأنَّهُ قطعةُ خشبٍ جافَّةٍ، لا تصلُحُ إلا لمنشارِ نجارِ موبيليا، كأنَّهُ لم يكن الرَّجلُ الَّذي كانَ يضجُ بالضَّحكِ، أو كأنَّه لم يكنْ هو الَّذي كانَ يأكلُ، ويتحاورُ معَ الآخرينَ قبلَ دقائقَ معدوداتٍ مِنَ الآن. إنَّ التَّفاصيلَ ومجرياتِ الأحداثِ قد تتغيَّرُ وفقَ تغيُّراتِ الزَّمنِ، أو وفقَ شروطٍ واتِّفاقيَّاتٍ خاصَّةٍ، تحدِّدُها طبيعةُ الصِّراعِ الدَّاخليِّ للفردِ، وكأنَّها عمليَّةُ ولادةٍ ونزعٍ وانسلاخٍ، عمليَّةُ خُلْعٍ وتراجعٍ الذَّاتِ القديمةِ بما يحملهُ الفردُ من مشاعرَ وأفكارٍ أمامَ إرادةِ ذاتٍ جديدةٍ تحلُّ محلَّها أحاسيسُ ومدركاتٌ جديدةٌ. قناعٌ قديمٌ مهترِئ أرادَ صاحبُهُ أن ينزِعَهُ عن وجهِهِ، قناعٌ قد انتهى تاريخُ صلاحيتهِ، ليُبدَّلَ بقناعٍ جديدٍ. إنَّهُ بناءُ شخصيَّةٍ ذاتِ تجاربَ جديدةٍ وخبراتٍ حياتيَّةٍ متعدِّدةٍ تُقامُ

على أنقاضِ رُكامِ الشَّخصيَّةِ القديمةِ البائدةِ، لتكونَ أكثرَ فاعليةً أمامَ أعتى مشكلاتِ الحياةِ صعوبةً، وأكثرَ تحصُّنًا أمامَ فاقةِ الجوعِ والفقرِ المدقِعِ، والشَّيءُ الَّذي حدثَ للتوِّ، تلكَ الطَّلقةُ القاتلةُ الَّتي خرجَتْ من المسدسِ، قد لا تكونُ انتحارًا حقيقيًّا، وربَّما قد تكونُ مجازًا، ولكنَّ الشَّيءَ الأكيدَ أنَّها ليستْ نَوعًا من أنواعِ الجريمةِ كالقتلِ أو السَّرقةِ، ولم تكنْ عملًا مِنَ الأعمالِ الإرهابيَّةِ المنتشرةِ بكثرةٍ، في عالمِنا المعاصرِ.

*** *** ***

كانَ ديكورُ الكافتيريا مُرعبًا للغايةِ، وبدا بابُ الدُّخولِ الرَّئيسيُّ على جهة اليمينِ، ويلي البابَ مباشرةً، وعلى مسافةِ مترٍ واحدٍ، طاولةٌ من الألمنيومِ والزُّجاجِ السَّميكِ، بعرضِ نصفِ مترٍ، وبطولِ أربعةِ أمتارٍ حتَّى نهايةِ الحائطِ، ولاحَتْ فجأةً فتاةٌ تقفُ من وراء الطَّاولةِ ضخمةُ الجسمِ، طويلةُ القامةِ، مُحجبةٌ لا يتبينُ من ملامحِ وجهها سوى ذلكَ الأنفِ الضَّخمِ المُخيفِ؛ فظهرت غيرَ جذابةٍ وغيرَ جميلةٍ. وتمعَّنتُ بالجدرانِ الثَّلاثةِ الَّتي صُمِمَتْ

من ديكوراتِ فنِّ الإسمنتِ العاديِّ على هيئةِ أشكالِ أحجارٍ نافرةٍ مِنَ الجدارِ، وقد طُليَتْ بعضُها باللَّونِ البنِّيِّ الغامقِ، وبعضُها الآخرُ باللَّونِ الأحمرِ القرميديِّ، أمَّا فيما يخُصُّ السَّقفَ، فكانَ على مسافةِ كلِّ نصفِ مترٍ ينتصبُ عمودٌ إسمنتيٌّ بارزٌ، يحاكي في بشاعتِهِ عمودًا خشبيًّا قديمًا، كالَّذي كانَ الأجدادُ يستعملونَهُ لِبناءِ منازلِهم قديمًا، وأُراهنُ بالقولِ إنَّها موجودةٌ بكثرةٍ حتَّى وقتنا الرَّاهنِ، أمَّا بالنِّسبةِ إلى ألوانِ العواميدِ المصنوعةِ بفنِّ ديكوراتِ الإسمنتِ، فقد طُليتْ كلُّها باللَّونِ الأسودِ اللميعِ، وفي آخرِ الصَّالةِ على الزَّاويةِ اليساريَّةِ انتصبَتْ نافورةٌ بثلاثِ طبقاتٍ متفاوتةٍ، مصنوعةٍ بفنِّ الإسمنتِ العاديِّ نفسِهِ، وقد طُليتْ الطَّبقةُ الأولى باللَّونِ البنِّيِّ الفاتحِ، والطَّبقةُ الثَّانيةُ باللَّونِ الفيروزيِّ، والطَّبقةُ الأخيرةُ الَّتي تجتمعُ في قاعِها المياهُ باللَّونِ الأخضرِ الحشيشيِّ. وكانَ ديكورُ المكانِ يُوحي بالقِدم، أو يدلُّ على رمزٍ ما، أو تقليدٍ عامٍّ قامَ بهِ صاحبُهُ ليتذكَّرَ بِهِ أسلافَهُ القدماءَ. حنينٌ جارِفٌ إلى الأصلِ كما يقولون. كلُّ شيءٍ هناك لا انسجامَ فيه

ولا تناسبَ، حتَّى الأثاثُ العصريُّ الموجودُ في الدَّاخلِ، ابتداءً مِنَ الطَّاولاتِ والكراسي والأقداحِ ومفارشِ الطَّاولاتِ وعلبِ المحارمِ الذَّهبيَّةِ، وحتَّى أضواءُ الدِّيسكو اللِّيزريَّةِ ذاتِ الألوانِ المبهجةِ للنَّفسِ. أمَّا فيما يتعلَّقُ بواجهةِ الكافتيريا، وهي واجهةٌ مِنَ البلورِ المزجَّجِ على طولِ الواجهةِ الأماميَّةِ بأكملِها، حيثُ عُلِّقت عليها شاشةٌ مُسطَّحةٌ قياسُها خمسٌ وستونَ بوصةً. ولنعدْ إلى وصفِ طاولةِ المعلِّم، الَّتي وضِعتْ بمواجهةِ البابِ الرَّئيسيِّ للمحلِّ، حيثُ يقفُ خلفَها شابٌّ عشرينيٌّ، ببشرةٍ ناعمةٍ، ووجهٍ بملامحَ أنثويَّةٍ، وأمامَهُ لابتوبٌ مفتوحٌ، وقد حدَّقَ في شاشتِهِ بنظراتٍ متواصلةٍ، ومن يراهُ يتهيَّأُ لهُ أنَّه التحمَ مع تلكَ القطعةِ الإلكترونيَّةِ بلا فَكاكٍ، وقد جلسَ على الكرسيِّ الَّذي يُجاوره رجُلٌ سبعينيٌّ، ثلجيُّ الشَّعرِ مُترهلُ الجسدِ، زائغُ البصرِ، يعيشُ في عالمٍ آخرَ غيرِ هذا العالمِ الَّذي نعيشُهُ، وظهرتْ فتاةٌ أخرى غيرُ تلكَ الَّتي كانت تقفُ مِنْ وراءِ الطَّاولةِ الطَّويلةِ، وهي الوحيدةُ الَّتي تقومُ بأعمالِ الخدمةِ بينَ الطَّاولاتِ، ذاتُ قوامٍ رشيقٍ، ووجهٍ

ملائكيٍّ بشعرٍ أسودَ مُتموجٍ، وكانَتْ جذَّابةً إلى أقصى حدودِ الخيالِ، لدرجةِ أنَّ صورتَها تبقى مطبوعةً في الذَّاكرةِ لعدَّةِ أيامٍ، أو ربَّما لمدةٍ لا بأسَ بها مِنَ الزَّمنِ.

لا توجدُ في قائمةِ الطَّعامِ الَّتي كانت تتدلَّى مِن بينِ أناملِها الدَّقيقةِ، غيرُ أنواعِ البيتزا المختلفةِ، (بيتزا البيبروني، وبيتزا الأجبانِ الأربعةِ، وبيتزا الخُضارِ، وبيتزا دجاج الباربيكيو، وبيتزا المارغريتا، وبيتزا الفطرِ)، كانَ التَّناقضُ صارخًا داخلَ الكافتيريا؛ تقريبًا في كلِّ شيءٍ موجودٍ، بدءًا من الاختلافِ الواضحِ أوَّلًا ما بينَ ديكورِ الماضي العتيقِ الَّذي كانَ يتَّسمُ بِهِ البناءُ، مع الأثاثِ الحديثِ الموجودِ بداخلِهِ، وثانيًا اجتماعُ جمالِ الأنثى الباهرِ معَ قُبحِ الأنثى الشَّديدِ، وآخر التناقضات تتجلَّى في تقاسمِ إدارةِ الكافتيريا بينَ شابٍّ فتيٍّ وعجوزٍ هرمٍ على حافَّةِ القبرِ. وتشكَّلتْ أجواءٌ ضبابيَّةٌ خانقةٌ منَ الدُّخانِ الكثيفِ، سيطرتْ على جوِّ الصَّالةِ بالكاملِ، بسببِ مُدخِّني النَّرجيلةِ الكثيرينِ.

*** *** ***

كانَ الرَّجلُ الخمسينيُّ يهمُّ بقطعِ الشَّارعِ، وعندما رفعَ رأسهُ فجأةً وقعَ بصرُهُ الشَّاردُ على لافتةِ نيونٍ مُضاءةٍ مكتوبٍ عليها **كافتيريا التَّصفيةِ**، فتوقَّفَ مُتسمِّرًا في مكانهِ على الفورِ، عائدًا إلى وعيهِ من جديدٍ، وكأَنَّهُ وجدَ ضالتَهُ الَّتي كانَ يبحثُ عنها منذُ مدَّةٍ طويلةٍ، عساهُ أن يقضيَ على ذلكَ الضَّجيجِ المرتفعِ، وحزمةِ الأفكارِ المتضاربةِ الَّتي تشكَّلتْ في رأسِهِ الَّذي اشتعلَ فيهِ الشَّيبُ باضطرابٍ، وهو يتمنَّى أن يختليَ بنفسِهِ في مكانٍ كهذا، يجلسُ فيه ليُنهي ذلكَ الجدلَ والصِّراعَ الدَّائرَ حولَ شخصيتينِ مختلفتينِ تمارسانِ مهنتينِ تختلفُ الواحدةُ عَنِ الأُخرى، كانتا في حالةِ اشتباكٍ دائمٍ ومستمرٍّ، وتضارُبٍ في العواطفِ، لتحلَّ واحدةٌ منهما محلَّ الأُخرى، ويقينهُ بِعدم استقرارِ رأيهِ على واحدةٍ فقط، كانت تجلبُ لَهُ على الدَّوامِ القلقَ والتَّوتُّرَ، وفقدانَ الرَّاحةِ النَّفسيَّةِ تمامًا، إنْ لم يتخذْ قرارًا حقيقيًّا الآنَ، فقد يبقى نهبًا للحزنِ والتَّعاسةِ بقيةَ عمرِهِ. كانَ مُترددًا وحائرًا في الاختيارِ ما بينَ شخصيةِ التَّاجرِ الأساسيَّةِ، ومدى التَّقدُّمِ الَّذي أحرزَهُ في مُزاولةِ مهنةِ التِّجارةِ،

وكانَ من أوائلِ المبدعينَ في أساليبِ فنِّ البيعِ والشِّراءِ، لقد عرفَ مفتاحَ السُّوقِ، وكيفَ يحصلُ على المالِ بكلِّ سهولةٌ، وأصبحَ لَهُ اسمٌ لامع في عالمِ المالِ والأعمالِ، وبينَ شخصيَّةِ الكاتبِ الدَّخيلةِ الَّتي ظهرت فيما بعدُ، والتصقت بِهِ وأصبحَتْ تعيشُ معَهُ إلى جوارِ شخصيَّةِ التَّاجرِ ندًّا لِندٍّ، تعيشُ معهُ حياتَهُ وأفكارَهُ، وتلازمُهُ في جميعِ أوقاتِهِ، على مدارِ أربعٍ وعشرين ساعةً، تشاركُهُ في منامِهِ وأحلامِهِ، يتناولُ معها جميعَ وجباتِهِ، وتتدخَّلُ في انتقاءِ ثيابِهِ، واختيارِ أصدقائِهِ، حيثُ أصبحَ مِنَ الصَّعبِ أن يتخلَّصَ من إحدى الشَّخصيَّتينِ على حساب الأُخرى، بقدرِ ما تعمَّقت كلٌّ منهما في داخلِهِ وضربَتْ بجذورِها عميقًا في ذاتِهِ، كما نجحَ في التِّجارةِ نجحَ أيضًا في الكتابةَ، ولم يكنْ ليصبحَ كاتبًا مشهورًا لولا شغفُهُ وولعُهُ بالقراءةِ والكتابةِ، اللَّتين أدَّتا بِدورِهُما إلى شقِّ طريقِ النَّجاحِ، إذ كانَ لديهِ عنادُ البغلِ الَّذي كانَ يتَّصفُ بِهِ، بالإضافةِ إلى ذلك الذَّكاءِ الحادِّ الَّذي ورثَهُ عن أجدادِهِ، فقد أعطَتْ لَهُ الدَّافعَ والحافزَ القويينِ في تحقيقِ جميعِ رغباتِهِ وطموحاتِهِ،

فهو لا يخافُ الفشلَ عندما يسعى نحوَ الهدفِ المرسومِ، ولا يسمحُ للفشلِ أنْ ينالَ منهُ، وبعدَ كلِّ تجربةٍ لَهُ على طريقِ الخيبةِ والهزيمةِ، تبدأُ بالتَّحوُّلِ لديه إلى طاقةٍ مُتجددَّةٍ تدفعهُ نحو تحقيقِ طموحاتهِ أكثرَ مِنَ السَّابقِ. إنَّ هذا الرَّجلَ لم يسترحْ أبدًا في حياتِهِ، لا في الحاضرِ ولا حتَّى في الماضي، إنَّ الصِّراعَ الدَّائرَ بينَ شخصيَّتي التَّاجرِ والكاتبِ لم تأتِ وليدةَ المصادفةِ. لقد عانى في الماضي مِنَ المشكلةِ نفسِها، وهو في ريعانِ شبابِهِ، حيثُ كانت نوعًا مِنَ المنافسةِ السَّهلةِ بينَ شخصيَّةِ العاملِ وشخصيَّةِ الفنَّانِ أو المطربِ الَّتي ظهرَتْ فيما بعدُ لديهِ، وتقهقرتِ الأولى أمامَ الثَّانيةِ بكلِّ سهولةٍ، ويرجعُ سببُ ذلكَ إلى نوعِ المهنةِ وصمودِها أمامَ الثَّانيةِ، لقد حلَّتَ على الرَّجلِ لعنةُ صراعِ الشَّخصيَّاتِ الَّتي تتجدَّدُ وتتحكَّمُ في مصيرِهِ وأسلوبِ حياتِهِ، وكلُّ اكتشافٍ جديدٍ لهذا الرَّجلِ يُعدُّ بالنِّسبةِ إليهِ صعودًا وارتقاءً في حياتهِ الَّتي يعيشها، وقرَّرَ الرَّجلُ الخمسينيُّ دخولَ ذلكَ المكانِ المُريبِ، ومن جملةِ ما رأى فورَ دخولِهِ هناكَ في ذلكَ اليومِ، وشدَّت انتباهَهُ، تلكَ

التَّناقضاتُ بينَ البناءِ والدِّيكورِ الحديثِ، وبينَ جمالِ الأنثى الأولى وقُبحِ الثَّانيةِ الشَّديدِ، وبين تقاسمِ إدارةِ المحلِّ بين شابٍّ ورجلٍ عجوزٍ؛ فأعجبَهُ ذلكَ المكانُ أيَّما إعجابٍ.

*** *** ***

قرَّرَ أن يحجزَ طاولةً في ذلكَ المكانِ، وطلبَ مِنْ إدارةِ المحلِّ حجزَ طاولةٍ لأربعةِ أشخاصٍ، فنظروا إليهِ مدهوشينَ، غيرَ مُصدِّقينَ آذانَهم من هذا الكلامِ العجيبِ، وكيفَ أنَّهُ شخصٌ واحدٌ وليسَ معَهُ أحدٌ، ويُريدُ طاولةً معها أربعةُ كراسيَ، فعرفَ بحدسهِ الدَّقيقِ ما تنطقُ بِهِ وجوهُهم، ولكنَّ عُذرَهُمُ الوحيدُ أنَّهم لا يعرفونَ ما الَّذي يدورُ في داخلِ هذا الرَّأسِ الَّذي تدورُ فيه رحى حربٍ طاحنةٍ بينَ عدَّةِ شخصيَّاتٍ مُختلفةٍ عن بعضِها البعضِ، وما أنْ جلسَ الرَّجلُ واستراحَ على مقعدِهِ، أتت إليهِ على عجلٍ فتاةُ الخدمةِ وفي يديها لائحةُ البيتزا، فناولتْهُ الفتاةُ الجذَّابةُ القائمةَ، وقالَتْ:

- لدينا هذهِ الأنواعُ مِنَ البيتزا.

التقطَ منها القائمةَ سريعًا.

وقالَ للفتاةِ:

_ شُكرًا.

نظرَ إلى قائمةِ الطَّعامِ بغيرِ اكتراثٍ، كما لم يكترثْ بفتاةِ الخدمةِ الجميلةِ.

قائلًا بصوتٍ مُتكاسلٍ:

_ مِن فضلِكِ، بيتزا الأجبانِ الأربعةِ.

سألَتِ الفتاةُ الحائرةُ:

_ هل من شيءٍ آخرَ، يا سيدي؟

_ لا.

وزَّعَ الرَّجلُ الخمسينيُّ الشَّخصيَّاتِ الأربعةَ الَّتي مرَّ بها في حياتِهِ وهي (العاملُ- والمطربُ الشَّعبيُّ- والتَّاجرُ- والكاتبُ)،

وكانَتْ أسماؤهم حسبَ تسلسلِ مهنهم بالتَّرتيب: (عبدُ الرَّحمنِ عيد، وعبدُ الرَّحيم عيد، وعبدُ الغفورِ عيد، وعبدُ الغفَّارِ عيد). اتَّفقَ الأشخاصُ الأربعةُ على أن يكونَ عبدُ الغفَّارِ مُديرَ الحوارِ والنِّقاشِ في جميعِ الجلساتِ، وأنْ تكونَ بينَ كلِّ جلسةٍ وأُخرى مدَّةٌ لا تقلُّ عن شهرٍ، واختاروا جميعًا أن يكونَ المكانُ هو هذا المكانَ نفسَهُ، وقد أتتْ تلكَ القراراتُ كلُّها على خلفيةِ أنَّ كلَّ شخصٍ سيقومُ بسردِ قصَّةِ حياتِهِ أمامَ أصدقائِهِ بصراحةٍ وشفافيَّةٍ تامَّة دونَ إخفاءِ أيِّ تفصيلٍ حتَّى ولو كانَ أصغرَ مِنْ حبَّةِ خردلٍ، ويتخلَّلُ السَّردَ تعليقاتٌ موجَّهةٌ إلى الشَّخصِ الَّذي يكونُ دورُهُ في الحديثِ، ثمَّ وضعَ مُديرُ الحوارِ مُسدسَ بريتا على الطَّاولةِ بِجانبِهِ، وأشارَ إلى العاملِ عبدِ الرَّحمنِ عيد أن يبدأَ بالحديثِ عن حياتِهِ.

الفصلُ الثَّاني
عبد الرَّحمن عيد

عندما كنتُ في بطنِ أمِّي، وهي ذاهبةٌ إلى الجبِّ لجلبِ ماءِ الشُّربِ، شعرتُ أنَّها قد تعثَّرتْ في خطواتِها، ثمَّ سقطتْ على وجهها فسقطتُ معَها على وجهي وهي حاملةٌ بي، فتأسَّفتُ كثيرًا لها، وحزنتُ حُزنًا شديدًا من أجلِها.

فقالَ الفنَّانُ:

-أنا أحتجُّ. ولا أصدِّقُ حرفًا ممَّا أسمعتنا للتوِّ.

-يعني أنَّني أكذبُ عليكم. أليسَ كذلك!

-هذا ما أراهُ للأسفِ الشَّديدِ.

ردَّ العاملُ بحدَّةٍ:

-اعذروني. أنا منسحبٌ من الجَلسةِ لقد بلغَ السَّيلُ الزُّبى.

قاطعَهُ الكاتبُ مُديرُ الجلسة قائلًا:

-الرَّجاءَ الرَّجاءَ أَنْ تتركوه يتحدَّثُ حتَّى يُنهيَ ما بدأهُ الرَّجلُ، فهناكَ متَّسعٌ من الوقتِ لإلقاءِ ما شئتم مِنَ الأسئلةِ عليهِ، وأنا متأكِّدٌ من أنَّه سيتقبَّلها بروحٍ رياضيَّةٍ عاليةٍ ورحابةِ صدرٍ واسعةٍ. هل أنتم موافقونَ؟

أجابَ الجميعُ:

- أجلْ. موافقونَ.

-أكملْ ما بدأتَهُ، ولن يقاطعكَ أحدٌ حتَّى تتوقَّفَ أنتَ عَنِ الحديثِ.

-أحسنتَ صُنعًا بذلكَ.

وخيَّمَ الهدوءُ المُريبُ على الجلسةِ، مَعَ التَّدخُّلِ الحازمِ مِنَ الكاتبِ، وبدأَ قطارُ الحديثِ يمشي على السِّكَّةِ من جديدٍ، بعد توقُّفٍ مؤقَّتٍ في إحدى المحطاتِ القريبةِ.

*** *** ***

وفي ساعةِ ولادتي الأولى كانَتْ عيناي الرَّمادِّيتانِ مفتوحتينِ على سِعتهما، وكنتُ أُميِّزُ جميعَ الأشياءِ المحيطةِ بي في الغرفةِ الوحيدةِ والمنسيَّةِ على أطرافِ عشوائيَّاتِ المدينةِ المهملةِ. والفضلُ بِذلكَ يعودُ إلى شبكةِ عيني المخروطيَّةِ الخارقةِ للطَّبيعةِ، الَّتي كانت تهيِّئُ ليَ الرُّؤيةَ، وأُميزُ بِها مختلفَ الألوانِ، وأسفي الشَّديدُ على الأبقارِ المسكينةِ، وهي لا ترى هذا العالمَ الجميلَ مِن حولها إلَّا باللَّونينِ الأسودِ والأبيضِ فقطْ.

ويمكنُني أنْ أصفَ لكم بدقَّةٍ كلَّ شيء كانَ يملكُ روحًا مثلي أو يتحرَّكُ من حولي. رأيْتُ امرأةً شمطاءَ طاعنةً في السِّنِّ، كانت تجلِسُ على طرفِ وسادةٍ مُهترئةٍ، لو رميْتَها في الشَّارعِ فلن تجدَ من يهتمُّ أو يُلقي لها بالًا، ورأيتُ فتاةً شابَّةً تصبُّ الماءَ من إبريقٍ بلاستيكيٍّ على يديها المُتخشبتينِ، ومن تحتِها إناءٌ بلاستيكيٌّ كبيرٌ. وأعتقدُ أنَّ الفتاةَ الشَّابَّةَ كانت عمَّتي ماريا الصَّغيرةُ، والَّتي كانت تُحبُّني وتعاملُني معاملةً حسنةً، أكثرَ من باقي عمَّاتي الأُخريات الأفظاظ عندما كُبرت، وشاهدتُ بالمكانِ امرأةً شابَّةً

أُخرى غيرَ هاتينِ اللَّتينِ ذكرتُهما، وهي مُمَدَّدةٌ على فِراشِها، وكنْتُ أنا في المهدِ بجانبِها، وهي تنظرُ إليَّ بعينينِ ناعستينِ وتعبتينِ إلى حدِّ الإفراطِ. لا تسألوا كيفَ عرفْتُ أنَّها أمِّي، كما يقولُ المثلُ: "قلبُ المؤمنِ دليلُهُ". كانَ المكانُ الَّذي وُلدتُ فيه غرفةً طينيَّةً مقفرةً من قطعِ الأثاثِ وسقفُها من القشِّ، فيها كوَّةٌ صغيرةٌ كنافذةٍ تطلُّ على العالمِ الخارجيِّ، وكانَ بابُها من قطعِ خشبٍ مرصوفةٍ طوليًّا، غيرِ متلاصقةٍ بجانبِ بعضها البعض، تملؤُها شقوقٌ عديدةٌ، تدخلُ منها أشعةُ الشَّمسِ إلى داخلِ الغرفةِ بِكُل أريحيَّةٍ. ولحظتُ مصباحًا عتيقًا مُعلَّقًا على الحائطِ. قد فقدَ طِلاءَهُ منذُ زمنٍ بعيدٍ، ويعملُ بِوقودِ الكازِ، أحدِ مشتقاتِ البترولِ الحديثِ، وهو مصدرٌ وحيدٌ لإضاءةِ الغرفةِ الَّتي جئتُ بها إلى هذا العالمِ الغريبِ، وحتَّى عندما كَبُرتُ بقيتُ أتذكَّرُ جيِّدًا غرفةَ ولادتي الَّتي أنجبتني أمِّي فيها، فقد كانت هي المشفى وغرفةَ المعيشةِ والمطبخِ وحمامِ الغسيلِ في الوقتِ نفسِهِ. أربعةُ أشياءَ مختلفةٍ في شيءٍ واحدٍ، أمَّا بالنِّسبةِ إلى خارجِها فلم يكنْ يُحيطُ بها جدارٌ أو سياجٌ يحميها من الخارج،

وعندما تقومُ بفتحِ البابِ يظهرُ أمامَكُ فِناءٌ شاسعٌ على مدِّ النَّظرِ، وهناكَ شيءٌ مهمٌّ يجبُ ألَّا أنساهُ، ومن واجبي أنْ أخبرَكم بِهِ، حيثُ لم أكنْ أجيدُ تعلُّمَ فنِّ الكلامِ، وحتَّى بعدَ أن كبُرْتُ كَرِهْتُ الكلامَ كثيرًا، لكيلا أكذبَ عليكم، حتَّى معَ أقربِ النَّاس إليَّ. وسأبقى أتلعثمُ مِنَ المهدِ إلى اللَّحدِ.

أنهى العاملُ عبدُ الرَّحمن عيد حديثَهُ.

*** *** ***

فقالَ الكاتبُ للفنَّانِ:

-هيا سلْهُ ما تشاءُ مِنَ الأسئلةِ.

سألَ الفنَّانُ:

-هَلْ أنتَ جادٌّ فيما قلْتَهُ الآنَ؟

-بالطَّبعِ أنا جادٌّ فيما قُلتُهُ.

-لا تغضبْ منِّي. اعتقدْتُ في البدايةِ أنَّكَ تجيدُ الأسلوبَ الفُكاهيَّ في الحديثِ، ولذلكَ قُمْتُ بِمقاطعتِكَ منذُ البدايةِ.

وتابعَ الفنَّانُ:

-هل أنتَ واثقٌ مِنَ الكلامِ الَّذي قلتهُ لنا الآنَ؟

-لا يوجدُ فيْهِ أدنى شكٍّ.

-وشعرتَ بِسقطةِ أمِّكَ عندما جلبَتِ الماءِ من الجبِّ، وأنتَ ما زلتَ قابعًا في ظلامِ أحشاءِ بطنِها الدَّامسِ، ولَّما ترَ نورَ الشَّمسِ، وهي حاملةٌ بِكَ. استغربتُ كثيرًا. أليس هذا أمرٌ غريبٌ جدًّا؟

ردَّ عليهِ العاملُ بهدوءٍ:

-وما الغريبُ في ذلك؟

-لا، ما الغريبُ إلا الشَّيطانُ، يا أخي.

- إنْ شاءَ اللهُ. أنا صادقٌ في كُلِّ كلِمةٍ قُلتُها لكُمْ.

-كلُّ ما أعرفُهُ أنَّهُ أمرٌ مُبالغٌ فيه للغايةِ، ولا شيءَ آخرَ سوى ذلكَ.

وتابعَ الفنَّانُ ساخرًا:

-هل يمكنُ أن تكونَ هناكَ كاميراتُ مراقبةٍ كانتْ مزروعةً خارجَ بطنِ أمِّكَ، وهي تنقلُ لكَ الأحداثَ أوَّلًا بأوَّل إلى الدَّاخلِ، وكنتَ على علمٍ بجميعِ تحرُّكاتِها؟

- إنْ لم تُصدِّقْ فهذا شأنُكَ.

- وزدْ على ذلكَ، عندما قُلتَ إنَّك تأسَّفتَ كثيرًا، وحزنتَ حزنًا شديدًا من أجلِها. هل مِنَ المعقولِ أنَّكَ كنْتَ تدركُ ماهيَّةَ الأحاسيسِ والمشاعرِ، وأنتَ لَّما تُولَدُ؟

- عدمُ إدراكِكَ لفهمِ وضعي ليس مِن شأني.

- أقنعني على الأقلِّ بنتفةٍ صغيرةٍ، أو بحجَّةٍ واهيةٍ إذا أردتَ.

- قناعتُكَ في رأسِكَ.

- آهٍ. أشعرُ بِصداعٍ عجيبٍ في رأسي، لا أعرفُ كيفَ أتخلَّصُ منْهُ؟

- أنت سببُ صُداعك، ولستُ أنا الملومُ في ذلكَ.

- تقصدُ أنَّهُ إذا صدَّقتُكَ فسوفَ أتخلَّصُ مِن ألمِ الصُّداعِ.

- نعمْ.

- هذهِ فلسفةٌ رائعةٌ لجلبِ الرَّاحةِ للنَّفسِ.

وتابعَ الفنانُ:

-إذًا أنتَ مُصرٌّ على ما قُلتهُ لنا.

-كلَّ الإصرارِ.

فترةُ صمتٍ وجيزةٌ.

أشارَ الكاتبُ بإيماءةٍ خفيفةٍ مِنْ رأسِهِ إلى التَّاجرِ ليستعدَّ بدورِهِ في إلقاءِ بعضِ الأسئلةِ على العاملِ:

-هل أنتَ مستعدٌّ؟

أجابَ التَّاجرُ:

-ومتلهفٌ جدًّا، ولكنْ بالرَّغمِ من إتاحةِ الفرصةِ لي من جنابِكَ الموقَّرِ، أعتقدُ جازمًا أنَّني لنْ أحصلَ منْهُ على بُغيتي في الإجابةِ، أرى أنَّ صديقَنا غايتُهُ التَّامَّةُ هي الحرصُ الشَّديدُ، في التَّكتُّمِ على تفسيرِ ما جرى معَهُ وهو وسطَ الأحشاءِ، ومُصرٌّ على التَّأكيدِ لنا، وهو ما زالَ ابنَ ساعةٍ واحدةٍ في الولادةِ، وعندَ خروجِهِ إلى العالمِ الخارجيِّ بأنَّهُ كانَ يرى كلَّ شيءٍ بوضوحٍ تامٍّ، وأنا مِنْ جانبي متأكِّدٌ أنَّ طرحَ أيِّ سؤالٍ عليْهِ ضربٌ مِنَ المستحيلِ، ولكنَّني أتأمَّلُ كثيرًا على تعقيبِكَ وتفسيرِكَ لما حصلَ يا سيدي الكاتبَ. هل لَكَ أن تُعلِّقَ أنتَ على ذلكَ مِنْ فضلِكَ؟

فقالَ الكاتبُ مُعلِّقًا:

-هناكَ وجهاتُ نظرٍ كثيرةٌ في علمِ النَّفسِ تؤمنُ بتلكَ الفكرةِ وتؤيِّدُها، وتقول إنَّ بعضَ الأجنَّةِ ذوي الذَّكاءِ الوراثيِّ الحادِّ يشعرونَ بما تتعرَّضُ لَهُ الأمُّ مِنْ مشاعرَ إيجابيَّةٍ أو سلبيَّةٍ في

حياتِها اليوميَّةِ، فترى تلكَ الأجنةَ مُعلَّقينَ بينَ سندانِ مشاعرِ فرحِ الأمِّ ومطرقةِ حزنِها؛ لذلكَ تراهم يسعدونَ بسعادةِ الأمِّ وكذلكَ تراهمْ يكتئبونَ بكآبةِ الأمِّ.

وتابعَ الكاتبُ:

-وسقطةُ الأمِّ يُستنتَجُ منها حسبَ ما يؤكِّدهُ العلمُ أنْ تكونَ شأنُها شأنَ المشاعرِ والأحاسيسِ، فالجنينُ في بطنِ أمِّهِ يحسُ بتلكَ المؤثِّراتِ الخارجيَّةِ الَّتي تسبِّبُ مجموعةً مِنَ التَّغيُّراتِ في الجهازِ العصبيِّ المركزيِّ الَّتي تتأثَّرُ بها الأمُّ فيتأثَّرُ الجنينُ بها أيضًا.

سألَ التَّاجرُ مُديرَ حوارِ الجلسةِ الأولى في ذلكَ اللِّقاءِ:

-وماذا بشأنِ مسألةِ العيونِ المفتوحةِ، والقدرةِ على التَّمييزِ، ورؤيةِ الأشياءِ المحيطةِ من حولِهِ في اليومِ الأوَّلِ من ولادتِهِ؟

-رُبَّما اختلطَ عليهِ الأمرُ بينَ عينِ عقلِهِ، وعينِهِ الظَّاهريَّةِ.

سألَ الفنَّانُ الكاتبَ مُندهشًا:

-لقد عرفْنَا العيونَ الظَّاهريَّةَ، ولكنَّنا لم نسمعْ بعينٍ للعقلِ. هل لكَ أنْ تُنيرَنا مِن فضلِكَ أيُّها الكاتبُ العظيمُ؟

ردَّ الكاتبُ مُدافِعًا:

-لستُ عظيمًا كما تقولُ، فأنا رجلٌ متواضِعٌ، ولكنَّني عنيدٌ في المواظبةِ على القراءةِ والمُطالعةِ، وأنا ألتقِطُ بعضًا مِنَ المعلوماتِ المُفيدةِ، وأستفيدُ منها أينما وجدُت ببطونِ مختلفِ الكتبِ القيِّمةِ.

تابعَ الكاتبُ المتواضِعُ:

-ألا تسمعُ في الحياةِ العمليَّةِ، عندَما تفعلُ شيئًا صائبًا أو منطقيًّا، أنَّك تقولُ على الفورِ إثرَ ذلكَ العملِ، إنَّهُ عينُ العقلِ.

أجابَ الفنَّانُ:

-كثيرًا ما حصلَ معي في حياتي اليوميَّةِ.

وتدخَّلَ التَّاجرُ مُقاطعًا الحوارَ ما بينَ الكاتبِ والفنَّانِ بقولِهِ:

-لقد قرأتُ هذهِ الآيةَ كثيرًا، والَّتي تقولُ: ((وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فإنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)).

ردَّ الكاتبُ:

-نعم. أن يعصمَهُ اللهُ من أذى النَّاس على أداءِ عملِهِ في التَّسبيحِ لَهُ. وتُسمَّى تلكَ العينُ أيضًا بالعينِ الدَّاخليَّةِ وهو اعتقادُ دينيٌّ يتجاوزُ الرُّؤيةَ العاديَّةَ للشَّخصِ، ويرجعُ بصاحبِهِ إلى رؤيةِ أحداثِ الماضي الَّتي وقعَتْ منذُ زمنٍ بعيدٍ جدًّا، وكذلكَ يَستشفُّ بهِ أحداثَ المستقبلِ. ويجبُ ألَّا أنسى أنَّهُ مسؤولٌ عَنِ النَّومِ واليقظةِ.

*** *** ***

في اليومِ الأوَّلِ لي بالمدرسةِ تبوَّلْتُ في البنطلونِ الأزرقِ الَّذي كنتُ أرتديهِ.

ظللتُ محصورًا طَوالَ حصَّةٍ كاملةٍ. بالرَّغمِ من وجودِ المراحيضِ الكثيرةِ في نفسِ المكانِ القريبِ مِنَ المقعدِ الَّذي أجلسُ

عليهِ، لكنَّ الخجلَ والاستحياءَ كمرضٍ منعاني مِنْ أنْ أطلبَ الإذنَ لقضاءِ الحاجةِ المُلحَّةِ الَّتي لا تحتملُ التَّأجيلَ. الرَّائحةُ الكريهةُ خذلتني، وفضحَني سيلُ البولِ الَّذي كانَ يسقطُ كشلالاتِ نياجارا على بلاطِ غُرفةِ الصَّفِّ، وكشفَتْ أمري أمامَ الجميعِ، أصبحتُ كهدفٍ عارٍ في مرمى النِّيرانِ الكثيفةِ. جاءَ الأستاذُ سريعًا إلى مكانِ الجريمةِ، وفحصَ الأدلَّةَ الدَّامغةَ في مسرحِ الجريمةِ السَّاطعةِ؛ فكانَتْ العقوبةُ صفعةً قويَّةً على خدِّي النَّاعمِ، فسمِعْتُ جرَّاءها صوتَ صفيرٍ حادٍّ كادَ يُمزقُ غشاءَ أُذني الرَّقيقِ، وعلى إثرِها طردَني مِنَ الصَّفِّ. كان أوَّلَ يومٍ وآخرَ يومٍ أُداومُ فيه في تلكَ السَّنةِ بعدَ تلكِ العملةِ.

خسرْتُ سنةً دراسيَّةً كاملةً بسببِ ذلكَ العملِ المُلحِّ الَّذي لم أُحسنْ التَّصرُّفَ بشأنِهِ وقتها. وبعدَها أصبحتُ أخافُ مِن جميعِ الأساتذةِ، بمُجرَّدِ أنْ ألمحَ ظلَّ أحدِهمْ وهو يمشي في الشَّارع، أو يخرجَ مِنْ محلٍّ تجاريٍّ، أو ربَّما كانَ ضجرًا يتنزَّهُ في الحديقةِ العامَّةِ، أذوبُ كمادَّةِ السُّكَّرِ الأبيضِ في الشَّاي السَّاخنِ، وأختفي

مِن أمامِهِ في لمحةِ بصرٍ، وكانَ قلبي يدقُّ بعنفٍ في صدري خوفًا وفزِعًا لمرآهُ.

في السَّنةِ الثَّانيةِ داومتُ كالمعتادِ، وكنتُ مِنَ الأوائلِ في صفِّي. لم يُعلِّمْني أحدٌ حرفًا في المنزلِ؛ فأبي لم يكُن مُتعلِّمًا، وكذلكَ بالنِّسبةِ إلى أمِّي كانَتْ جاهلةً وغيرَ مُتعلِّمةٍ. الاثنانُ كانا أُمِّيين، لا يُجيدانِ القراءةَ والكتابةَ؛ لذا اتَّخذْتُ سياسةً فعَّالةً في التَّعلُّمِ داخلَ الصَّفِّ، ألا وهي الجلوسُ في آخرِ مقعدٍ؛ فيبدأُ دورُ الاستماعِ من أوَّلِ مقعدٍ، وعندَما كانَ يأتي دوري في الاستماعِ، كنتُ أحصلُ على درجةٍ ممتازٍ يا بطلُ.

لم ينغِّصْ عليَّ شيءٌ في الصَّفِّ الأوَّلِ الابتدائيِّ غيرَ حادثةٍ واحدةٍ، سرعانَ ما حرَّكَتِ الخوفَ الرَّاكدَ القديمَ في داخلي، حتَّى أصبحَ ساريَ المفعولِ أمامَ رؤيةِ جيب لاندروفر، وقد وقفتْ أمامَ بابِ المدرسةِ، وعندَها رأيتُ طاقِمًا طبيًّا يلبسُ ثيابًا بيضاءَ، وهم ينزلونَ الواحدَ تلوَ الآخرَ وفي أيديهِمْ حقائبُ ثقيلةٌ؛ فَسَرَتْ على الفورِ همهمةٌ غيرُ طبيعيَّةٍ، وشبهُ اضطرابٍ أدَّى إلى ظهورِ

انفعالاتٍ شديدةٍ من ناحيةِ مجموعةٍ الأولادِ المرعوبينَ، ففهمتُ مِنَ الأولادِ الأكبرِ سنًّا أنَّهم كانوا قادمينَ من أجلِ حملةِ التَّلقيحِ السَّنويَّةِ؛ لأنَّهم قد مرُّوا بالتَّجربةِ قبلَنا، وقد يكونُ لأكثرِ من مرَّةٍ، ولكنَّني عزمتُ على الفرارِ مثلَ طيرٍ مذعورٍ من ذلكَ المكانِ المرعبِ، وبالفعلِ نجحْتُ في التَّملُّصِ والاختفاءِ المفاجئ عن أنظارِ الجميعِ، ولم آخذْ حُقنةَ التَّلقيحِ في ذلكَ اليومِ من تلكَ السَّنةِ، ولكنْ لم أغبْ مثلَ السَّنةِ الأولى في أوَّلِ يومٍ عندَما عملتُ تلكَ العملةَ المُخجِلةَ في البنطلونِ الأزرقِ، وغبتُ بسببها سنةً كاملةً عَنِ المدرسةِ. وهذهِ المرَّة داومْتُ في اليومِ التَّالي كالمعتادِ، ولم يشعرْ بغيابي أيٌّ منهم، وذلكَ بسببِ الفوضى العشوائيَّةِ والهلعِ الَّذي دبَّ بين جموعِ أولادِ الصَّفِّ الأوَّلِ الابتدائيِّ.

شيءٌ آخرُ يستحقُّ الذِّكرَ بعدَ تلكَ السَّنواتِ الطَّويلةِ، وكانَ ذلكَ في صباحِ يومِ الجمعةِ؛ العطلةِ الرَّسميَّةِ في البلادِ عندما سمعتُ أبي يتحدَّثُ إلى أمِّي، بأنَّه اتَّفقَ مع المُطهِّرِ من أجلِ تطهيرِ أولادِهِ الذُّكورِ صباحَ يومِ السَّبتِ. يا إلهي كيفَ سأنامُ تلكَ اللَّيلةَ،

لم يُغمضْ لي جفنٌ حتَّى أولى تباشيرِ الفجرِ. وما أنْ بزغَتْ أولى خيوطُ الشَّمسِ، حتَّى وليتُ الأدبارَ سريعًا. غبتُ عَنِ البيتِ إلى ما بعدِ الظُّهرِ، أتضوَّرُ جوعًا بينَ الشَّوارعِ المختلفةِ، وعندَما عدتُ إلى البيتِ مِن رحلةِ الفرارِ، كانوا قد انتهَوا من حفلةِ التَّطهيرِ الجماعيِّ، فحصدْتُ بذلكَ علامةَ ممتازٍ إضافيَّةٍ أُضيفَتْ إلى سجلِّي الممتازِ في كلِّ المجالاتِ. ودعوني أجيبُ أنا بنفسي عنْ هذا السُّؤالِ فقطْ، لأنَّني أعدُّهُ استثنائيًّا في نظري، مع العلمِ أنَّ هذا الأمرَ وقاحةٌ سافرةٌ مني، ولكنِّي أؤمنُ بأنَّ لكلِّ قاعدةٍ شواذٌّ. إليكمْ يا سادةُ الجوابَ على التَّطهيرِ: كانَ النَّاسُ قديمًا في الدِّيانةِ اليهوديَّةِ ينحرونَ القرابينَ من ضأنٍ وعجولٍ، ويقدِّمونها على مذبحِ الإلهِ يهوه، ولكنْ جاءَ زمنٌ قلَّ فيه عددُ تلكَ الحيواناتِ المُدجَّنةِ للتَّقرُّبِ من يهوه، فبحثوا عن شيءٍ آخرَ ليكونَ قُربانًا، فلم يهتدوا إلَّا إلى اقتطاعٍ جزءٍ من غرلةِ الذَّكرِ ليكونَ قُربانًا بشريًّا، فنجحوا في مسعاهم والخروجِ من تلكَ الأزمةِ بنجاحٍ باهرٍ وضمِنوا بذلكَ التَّطهيرِ حفظَ ماءِ وجوهِهم أمامَ أتباعِهم

المتشكِّكينَ. كانَ ذلكَ منذُ قديمِ الزَّمانِ، أمَّا الآنَ فقد اكتشفَ العلمُ أنَّ الغرلةَ جزءٌ أساسيٌّ مِنَ الجسمِ وهو يغطِّي التَّمرةَ، الَّتي تحتوي حساسيةً عاليةً تجاهَ الملامسةِ لحوافها، وعندما تُزالُ الغرلةُ في عمليةِ التَّطهيرِ، تتعرَّى منطقةُ التَّمرةِ وحوافُها ذاتُ الحساسيةِ السَّريعةِ في التَّهيُّجِ، فيؤدِّي بدورِهِ في القذفِ السَّريعِ دونَ استمتاعِ طرفي الجماعِ بها، وقد يؤدِّي إلى خلافاتٍ كارثيَّةٍ بينَ طرفي العلاقةِ الزَّوجيَّةِ.

*** *** ***

هناكَ شيءٌ آخرُ لم يغبْ عن بالي أبدًا، وحتَّى بعدَ مرورِ سنواتٍ عديدةٍ عليها، وأصبحَتْ ذكراها لديَّ كنجمةٍ لامعةٍ في سماءٍ شديدةِ الظُّلمة. وكلَّما راجعْتُ قائمةَ ذكرياتي القديمةَ منذُ البداياتِ الأولى مِن عمري تذكَّرْتُها جيدًا وكأنَّها حدثَتْ معي اليومَ، كنتُ أنا وابنُ عمَّتي نجلسُ معَ فتاةٍ في المقعدِ نفسِهِ، ويبدو أنَّني كنتُ قد وقعْتُ في ذلكَ السِّنِّ المبكرِّ بحبِّ تلكَ الفتاةِ ذاتِ الصَّحَّةِ الجيدةِ، والبشرةِ السَّمراءِ النَّاعمةِ الملمسِ كالحريرِ. كنتُ

السَّبَّاقَ بإعطائِها المبراةَ والممحاةَ، عندما كانَتْ تحتاجُهما، فكانَ ابنُ عمتي يغارُ منِّي على الدَّوامِ، لأنَّني أعتقدُ أنَّهُ أيضًا كانَ يريدُ أنْ يجذبَ اهتمامَ تلكَ الفتاةِ الصَّغيرةِ إليْهِ. وظلَّ الأمرُ مُعلَّقًا حتَّى نهايةِ الفصلِ الدِّراسيِّ.

*** *** ***

وفي السَّنةِ الثَّالثةِ والرَّابعةِ مِنَ المرحلةِ الابتدائيَّةِ ظهرت لديَّ موهبةُ الرَّسمِ بالإضافةِ إلى ملكةِ التَّفوُّقِ الدِّراسيِّ بجميعِ الموادِّ الأُخرى، فقد كانَ الأستاذُ في حصَّةِ مادَّةِ الرَّسمِ يعلِّقُ في كلِّ مرَّةٍ صورةً كبيرةً لإحدى الحيواناتِ على السَّبورةِ، ونبدأُ برسمِها وتلوينها على دفترِ الرَّسمِ الخاصِّ بكلِّ واحدٍ منَّا، وكنتُ من القلائلِ الَّذينَ كانوا يُجيدونَ رسمَها طبقَ الأصلِ، فيكافِئُني الأستاذُ بمنحي درجةَ امتيازٍ، وسأتطرَّقُ إلى موضوعِ الرَّسمِ في السَّنواتِ الإعداديَّةِ القادمةِ، ولكنْ كانت هناكَ عادةٌ سيِّئةٌ لازمتني يجبُ ألَّا أُخفيها عنكم في المرحلةِ الابتدائيَّةِ خاصَّةً، إذ كنتُ غيرَ نظيفٍ؛ لا أهتمُّ بنظافتي الشَّخصيَّةِ، وأثناءَ التَّفتيشِ

على الأظافرِ الطَّويلةِ، كانت العقوبةُ الضَّربَ على اليدينِ بطرفِ المسطرةِ الحادَّةِ؛ فأنا لا أُبالغُ بالقولِ إنَّني أوَّلُ المعاقبينَ على ذلك، بسببِ طولِ أظافري، فكانتْ تجتمعُ طبقةٌ سميكةٌ مِنَ السُّخامِ الأسودِ من تحتِها. وسأنتقلُ بِكم إلى عادةٍ أبشعَ مِنْ ذلكَ بكثيرٍ، وهي عادةٌ مُقرفةٌ للغايةِ. كنتُ أنظِّفُ مُخاطَ سيلانِ أنفي الدَّائمِ بِطرفِ كُمِّ قميصي، حتَّى تتراكمَ طبقاتٌ كثيرةٌ مِنَ المُخاطِ فوقَ بعضِها البعضِ، تشبهُ كثيرًا طبقاتِ البلورِ السَّميكةِ، وإذا ما تعرَّضْتُ إلى اعتداءٍ من أحدِ الخصومِ؛ كانت تلكَ الطَّبقةُ البلُّوريَّةُ تتفتَّتُ إلى آلافِ الشَّظايا والأجزاءِ الدَّقيقةِ، ولكنْ لحسنِ حظِّي القويِّ فارقتني تلكَ العاداتُ السَّيِّئةُ بعدَ سنواتٍ ليستْ بكثيرةٍ، وأصبحتُ بعدَها من أنظفِ الطُّلابِ، ويمكنني أن أقولَ إنَّني قد أنهيتُ المرحلةَ الابتدائيَّةَ كلَّها بالتَّفوُّقِ في جميعِ الموادِّ، وكلَّلتُها بِمسكِ الختامِ بالتَّخلُّصِ من تلكَ القذارةِ.

توقَّفَ الحديثُ.

قالَ مُديرُ الحوارِ:

-هل من تعليقٍ؟

سألَ التَّاجرُ:

-لماذا غبْتَ سنةً كاملةً بعدَ تلكَ العملةِ عَنِ المدرسةِ؟

أجابَ العاملُ:

-كنتُ خجِلًا من أصدقائي.

-ألم يكُنْ شهرٌ واحدٌ يكفي للنِّسيانِ.

- هذا بالنِّسبةِ إليكَ.

- كيفَ؟

أكَّدَ العاملُ قائلًا:

-إنَّ ذاكرتي حادَّةٌ، تحتفظُ بالصُّورِ والأحداثِ لمدَّةٍ طويلةٍ.

-هل أفهمُ من ذلكَ أنَّهُ يلزمُ مرورُ سنةٍ على الأقلِّ حتَّى تبرُدَ الأشياءُ المطبوعةُ في ذاكراتِكَ وتنساها؟

لم يجبِ العاملُ.

سألَ الفنَّانُ:

-ما الَّذي فعلَهُ أهلُكَ بعد انقطاعِكَ على مدارِ سنةٍ كاملةٍ عَنِ الدَّوامِ؟

-لقد عجزوا عَنِ الصُّمودِ أمامَ كتلةِ العنادِ الَّذي أبديتُهُ.

-فهمْتُ.

-أخيرًا.

فقالَ الكاتبُ للفنَّانِ والتَّاجرِ معًا:

-أرى في بريقِ عينيكما الدَّهشةَ والعَجبَ، وما في ذهنيكما بشأنِ السُّؤالِ القادمِ.

ردَّ التَّاجرُ عليهِ:

-لقد حيرتْني مسألةُ حبِّ الفتاةِ الصَّغيرةِ.

فقالَ الفنَّانُ:

-أنا أيضًا حائرٌ.

أجابَ الكاتبُ:

-أقولُ ببساطةٍ إنَّهُ كانَ الابنَ البكرَ لوالديهِ آنذاك، ولم يكنْ لديهِ أخوةٌ أو أخواتٌ أصغرُ أو أكبرُ منْهُ، ولذلكَ كانَ يتهيَّأُ له بالفطرةِ الغريزيَّةِ ذلكَ الحبُّ الأخويُّ لتلكَ الفتاةِ الَّتي كانت تصغرُهُ بأشهرٍ فقط، ولم يكنْ حُبًا جنسيًّا كالَّذي نعرفُهُ فيما بيننا ونحنُ كِبارٌ.

حتَّى من بابِ السُّخريَّةِ والتَّهكُّمِ لم يشكرْهُ أحدٌ ولم يثني على المجهودِ الكبيرِ الَّذي كانَ يبذلُهُ في سبيلِ إقناعِ أصدقائِهِ الجالسينَ من حولِهِ، ولكنَّهُ قالَ في نفسِهِ:

-حقًّا إنَّ الشَّعبَ لا يقدِّرُ عظمةَ المعرفةِ والعلمِ لدى الكُتَّابِ، ولا يقدِّرونهم حقَّ قدرهم، فيموتُ الكثيرونَ منهم وهم مُهمَّشونَ في الحياةِ، وبعدما يموتونَ يصبحونَ في غمضةِ عينٍ مشهورينَ إلى أبعدِ الحدودِ.

ولم يسألوا عَنْ موضوعِ النَّظافةِ، لأنَّ المتحاورينَ كانوا مُتَّفقينَ جميعًا على إهمالِ الوالدينِ وتقصيرِهما؛ فهما السَّببُ الأساسيُّ في ذلك، لأنَّهما كانا فقيرينِ؛ فالأبُ طَوالَ النَّهارِ في العملِ، ويأتي إلى البيتِ مساءً منهكَ القِوى. والأمُّ أيضًا تساعدُ زوجَها في بعضِ الأعمالِ الشَّاقَّةِ من أجلِ تأمينِ لقمةِ العيشِ لأولادِها، ولذلك ظلَّ الولدُ مُهملًا من ناحيةِ أناقةِ ملبسِهِ وكذلكَ نظافتِهِ الشَّخصيَّةِ.

انتهتْ فترةُ توجيهِ الأسئلةِ، وبدأَ الحديثُ يعاودُ دورانَهُ من جديدٍ.

*** *** ***

بلغتُ الصَّفَّ الأوَّلَ الإعداديَّ بهيئةٍ هزيلةٍ ووجهٍ شاحبٍ، ولكنَّ العنادَ والذَّكاءَ المتَّقدَ والتَّفوُّقَ ظلَّا معي كظلِّي في ما تبقَّى من عراكي الدَّائمِ معَ الحياةِ. أذكرُ جيِّدًا أوَّلَ يومٍ لي في مدرسةِ **عربستان** الَّتي انتقلتُ إليها بعدَ انتهائي مِنَ المرحلةِ الابتدائيَّةِ،

وكانَ يومًا نحِسًا بحقٍّ، لن أنساهُ أبدًا؛ لقد اصطففنا في طابورٍ طويلٍ أمامَ مُدرِّسٍ أسنانُهُ معوجَّةٌ خارجةٌ من فمِهِ، ولَهُ قَسماتٌ صارمةٌ، تدخِلُ الخوفَ والرُّعبَ إلى قلوبِنا البريئةِ. كانَ واقفًا وراءَ طاولةٍ صغيرةٍ، وأمامَهُ مجموعتانِ مِنَ القُصاصاتِ الورقيَّةِ المطويَّةِ على بعضِها، وعندَما يصلُ الطَّالبُ إلى الطَّاولةِ الصَّغيرةِ، يأمرُهُ المُدرِّسُ الغليظُ أن يختارَ واحدةً مِنَ الورقتينِ المطويَّتينِ، فيتناولُها بيدٍ مُرتبكةٍ، ثمَّ يبدأُ بفتحِها، ويكونُ محتواها إمَّا كلمةُ (**إنكليزيّ**) أو (**فرنسيّ**)، وعلى أساسِ هذهِ النَّتيجةِ يُفرَزُ الطُّلَّابُ إلى مجموعاتٍ، حتَّى تصبحَ المجموعةُ الواحدةُ مؤلَّفةً من ثلاثينَ طالبًا في صفٍّ واحدٍ يدرسونَ اللُّغةَ الإنكليزيَّةَ، وهكذا تجري الأمورُ مع مجموعةٍ أخرى بنفسِ العددِ في صفِّ الطُّلَّابِ الذينَ يدرسون اللُّغة الفرنسيَّةَ. وعندما حانَ دوري في اختيارِ الورقةِ كانَ نصيبي الورقةَ المكتوبَ عليها كلمةُ (**إنكليزيّ**)، لن أخفيَ عنكم بهجتي الحقيقةَ عندما أدركتُ أنَّني أصبحتُ في صفوفِ اللُّغة الَّتي أحببتُها وأنا في بطنِ أمِّي، حتَّى بلوغي المرحلةِ الابتدائيَّةِ، كنتُ

أطمحُ دائمًا إلى اختيارِ تلكَ الورقةِ. كانَ حلمي أن أصبحَ في صفِّ اللُّغةِ الإنكليزيَّةِ، ولكنَّ المدرِّسَ ذا الأسنانِ المعوجَّةِ للخارجِ عكَّرَ صفوَ فرحي الشَّديدِ، مُلغيًا انتصاري في تلكَ اللَّحظةِ، الَّتي رفعَ فيها يدَهُ السَّتالينيَّةِ في وجهي، وقالَ:

-لُغتُكَ فرنسيَّةٌ.

أصابَ الخرسُ لسانيَ، وشُلَّتْ ساقايَ، وما كادتا تحملاني.

جلستُ أمامَهُ على الأرضِ، وأطرافي كلُّها ترتعشُ غضبًا من ذلكَ التَّصرُّفِ الأرعنِ معي، وذلكَ بحجَّةِ أنَّ عددَ الَّذينَ اختاروا اللُّغةَ الإنكليزيَّةَ فاقَ النِّسبةَ المطلوبةَ، لذلكَ كلُّ منْ تبقَّى مِنَ الطُّلابِ أصبحوا ضمنَ صفوفِ اللُّغةِ الفرنسيَّةِ، هكذا بقيتُ أكرهُ الصَّفَّ الأوَّلَ الإعداديَّ بسببِ اللُّغةِ الفرنسيَّةِ، والَّتي لم أكنْ أحبُّها أبدًا.

*** *** ***

سأُسمي عاميَ الأوَّلَ الإعداديَّ بعامِ الصَّفعاتِ. كانت أوَّلُ صفعةٍ تلقَّيتُها في استراحةِ الباحةِ من طالبٍ في الثَّالثِ الإعداديِّ (الشَّهادة)، لا لذنبٍ أو خطيئةٍ ارتكبتُها بحقِّهِ، وإنَّما كانَ سببهُ سوءَ سلوكِ ذلكَ الطَّالبِ الَّذي كانَ معروفًا في المدرسةِ كلِّها. لم أشعرْ في تلكَ اللَّحظةِ بالألمِ، ولكنِّي شعرتُ بحزنٍ شديدٍ آنذاكَ، وتمنَّيتُ له الموتَ حينَها، وبالفعلِ ماتَ بعدَها وهو لايزالُ طالبًا، هذا دُعاءِ الصُّدفةِ والحظِّ أحيانًا.

أمَّا الصَّفعةُ الثَّانيةُ الَّتي تلقَّيتُها كانتْ بعدَها بأقلَّ من شهرٍ. أتذكَّرُ كُنَّا في حصَّةِ درسِ الرَّسمِ، وهذه الصَّفعةُ كانت من معلِّمِ الرَّسمِ نفسِهِ. كُنَّا نجلسُ كُلَّ ثلاثةِ طلَّابٍ في مقعدٍ واحدٍ مُتلاصقين بجانبِ بعضنا البعض، وكانَ الواجبُ التَّدرُّجَ في الألوانِ المائيَّةِ، فيبدأُ من اللَّونِ الغامقِ نزولًا إلى اللَّونِ الفاتحِ والعملُ بالعكسِ، ويجبُ عليك أن تمرَّ بعدَّةِ مراحلَ من تدرُّجاتِ اللَّونِ حتَّى تصلَ إلى النِّهايةِ.

وقفَ معلِّمُ الرَّسمِ بجانبي، وتناولَ دفتري من أمامي، ونظرَ إليه مُتأمِّلًا، ثمَّ ابتسمَ ابتسامةً عريضةً، وقالَ:

-يا عبدَ الرَّحمن عيد أنتَ فنَّانٌ موهوبٌ ومبدعٌ؛ ستصبحُ رسَّامًا عالميًّا، لو اهتمَّ بكَ أهلُكَ قليلًا.

وبقليلٍ من الانحناءِ على المقعدِ، وضعَ علامةَ عشرينَ من عشرين في أسفلِ الورقةِ، شعرتُ بفرحٍ جارفٍ وقتها، ولكنْ كما فهمْتُ لاحقًا عندما كبُرت، أنَّ لحظاتِ الإنصافِ والعدلِ لا تدومُ وإنَّما تعقبُها لحظاتُ الظُّلمِ والإجحافِ. هذه هي طبيعةُ الحياةِ.

بعدما تجاوزَ معلِّمُ الرَّسمِ مقعدَنا وانتهى من وضعِ علامة لِكلِّ واحدٍ منا. ذهبَ إلى المقعدِ الَّذي يلينا، وكان ظهرُهُ مُستديرًا خلفِنا. يسندُهُ إلى مقعدِنا، كانَ الطَّالبُ الثَّالثُ الَّذي يجلسُ معنا والملاصقُ للحائطِ قد وضعَ كلتا قدميهِ على الحائطِ وأدارَ بمؤخرتِهِ على الَّذي بجانبهِ، وقام في إزاحتهِ نحونا بكلِّ طاقتِهِ وبِكلِّ ذرةٍ من كيانِهِ نحوي، وأنا جالسٌ على حافَّةِ المقعدِ

الخارجيِّ؛ فأحسَّ المعلمُ ذو الكفِّ الضَّخمِ والرَّبعةُ، بهذهِ الضَّجَّةِ المفتعلةِ، واستدارَ فجأةً نحو الخلفِ؛ فصفعني واقفًا على رجلٍ واحدةٍ، بكلِّ ما أوتي له من وزنٍ وثقلٍ بتلك الحركةِ الفريدةِ من نوعِها في توجيه الصَّفعاتِ إلى الآخرين غيرِ الخطائين. ساعةٌ كاملةٌ تقريبًا وأنا أسمعُ طنينَ ذبابةٍ تطنُّ داخلَ أُذني، لم أشعرُ بالألمِ قطُّ، وإنَّما شعرتُ بظلمٍ فادحٍ قد وقعَ عليَّ نتيجةَ تلكَ الصَّفعةِ المُجحِفةِ. لقد أُصيبَ الطَّالبُ المُتسببُ بهذا العملِ بعدَ شهرين بمرضٍ عصبيٍّ ألزمهُ البيتَ، وتركَ الدِّراسةَ في الثَّاني الإعداديِّ، ولكنَّي لا أُخفي عليكم أنَّني دعوتُ على المعلم الَّذي كانَ من محافظةِ دير الزَّور، فماتَ بعد سنةٍ إثرَ نوبةٍ قلبيَّةٍ حادَّةٍ، ولكنَّهُ كانَ بدينًا، فيمكنُ أن تكونَ البدانةُ هي السَّببُ في موتِهِ.

أمَّا الصَّفعةُ الخالدةُ المزدوجةُ والأخيرةُ فهي الَّتي آلمتني بحدَّة، عندما استدعاني الموجِّهُ المدرسيُّ، فطلبَ منِّي أنْ أنتسبَ إلى صفوفِ الشَّبيبةِ، وأصرَّ عليَّ كثيرًا في تلكَ المقابلةِ أن أُوافقَ على العضويَّةِ، وتأكَّدَ الموجِّهُ أنَّ استدعاءَهُ لي مُنيَ بالفشلِ في إقناعي

للانضمامِ إلى صفوفِ الشَّبيبةِ الثَّوريَّةِ، فلم يبقَ أمامَهُ مجالٌ غيرَ التَّقدُّمِ نحويَ، وصفعَني بكفٍ على خدِّي الأيمنِ، ثمَّ أتبعَهُ بكفِّهِ الآخر على خدِّي الأيسرِ، فرسمَ بذلكَ وحمتينِ مُحمرَّتينِ يشتعِلُ فيها لهيبٌ بِمكانِ الصَّفعتينِ. لقد ظلَّ وسمًا مطبوعًا لساعاتٍ متلاحقةٍ بعدها، وبقيَ وجهي متورمًا لأيامٍ متتاليةٍ بِسببها، ومن أثرِ الضَّربتين كرهتُ لعبةَ العروشِ، وفي لعبةِ العروشِ إمَّا أنْ تربحَ أو أنْ تموتَ. وإن كنتُ أحبُّ بلدي أكثرَ من جميعِ بلدانِ العالمِ كلِّها، لأنَّه المكانُ الَّذي ولدتُ وترعرعتُ فيه، ونشأتُ على ترابهِ الغالي. بالرغم مماَّ مرَّ بي من ظروفٍ قاسيةٍ ومآسٍ أليمةٍ. وإذا كانت لي أمنيةٌ في هذهِ الحياةِ فهي أن يحضنني ترابُ الوطنِ العطرِ بعد أن أموتَ. ولم أنسَ صفعةَ الموجِّهِ الَّتي أشعرتني بألمٍ حقيقيٍّ للأسفِ الشَّديدِ.

لقد انتهى بذلك عامُ الصَّفعاتِ الدِّراسيِّ، وكنتُ الأوَّلَ على الصَّفِّ في ذلك العامِ الَّذي مضى دون رجعةٍ.

*** *** ***

وعلى مستوى الوِلادات، ومع توالي سنواتِ الدِّراسةِ، وتقريبًا في كلِّ عامٍ كانت أمِّي تنجبُ ولدًا أو بنتًا، وبحلولِ الصَّفِّ الثَّالثِ الإعداديِّ أصبحَ لي سبعةٌ من الأخوةِ ما بينَ ذكورٍ وإناث. أمِّي كانت خصبةً مثلَ مفقسةِ الفِراخ، كان أبي دائمًا يقولُ حين اجتماعِ العائلةِ في المساءِ؛ أتذكَّرُ كلامَهُ جيِّدًا وهو يضحكُ ملءَ شدقيه، ويضيفُ واثنانِ من الأخوةِ ماتا في بطنِ أمِّكم. وبسببِ كثرةِ الأولادِ مرَّ أبي وأمِّي بفقرٍ يَفلقُ الحجرَ، وسأتحدَّثُ عن ذلكَ بمرارةٍ بالغةٍ، لأنَّها كانت فترة خروجي مِنَ المدرسةِ. وكانت البدايةُ بالصَّفِّ الثَّاني الإعداديِّ.

*** *** ***

علَّقَ الكاتبُ:

- في قُرعةِ اللُّغةِ وقع نصيبُكَ على ورقةِ اللُّغةِ الإنكليزيَّةِ.

أجابَ العاملُ:

-هذا ما حصلَ بالطَّبعِ يا سيدي الكاتبَ.

تدخَّلَ التَّاجِرُ مُقاطعًا:

-لماذا لم تحتجَّ؟ وما الَّذي منعَك من حقِّ الاعتراضِ على ذلك؟

-اعترضُ على مَنْ؟

-على الموجِّهِ الَّذي تلاعبَ بالنَّتيجةِ في آخرِ لحظةٍ.

-إنَّهُ كانَ يُمثِّلُ الجهةَ الشَّرعيَّةَ الَّتي تُخوِّلهُ الحقَّ.

-أيُّ حقٍّ هذا! حقَّه في الغشِّ والتَّزويرِ؟

فقالَ الفنَّانُ:

-كانَ بإمكانِكَ على الأقلَّ أنْ ترفعَ شكواكَ إلى المديرِ، السُّلطةِ العُليا في المدرسةِ، من أجل إنصافِك حينَها.

-أوَّلًا لم أكن أملكُ تلكَ الجرأةَ والشَّجاعةَ اللَّتين تمكِّناني من مقابلةِ المُديرِ، وثانيًا لم أكُن أدركُ ماهيَّةَ تلكَ الأمورِ، يا صديقي العزيزَ.

سألَ التَّاجرُ:

-ألمْ تخبرْ أهلَك بالَّذي جرى معكَ في اليومِ الأوَّلِ من الدَّوامِ؟

-أبي كانَ دائمَ العملِ خارجَ البيتِ، لا يهتمُّ بنا، فهو يقضي أغلبَ أوقاتِهِ في العملِ الشَّاقِّ نهارًا، وفي اللَّيلِ يأتي مُنهكَ القوَّةِ، ولا يدري عن أمورنا اليوميَّةِ شيئًا. هل انتهيت؟

-لا.

وتابعَ التَّاجرُ:

-وأمُّكَ؟

- أمِّي بالرَّغمِ مِن أعمالِ البيتِ، كانَت تقومُ بمساعدةِ أبي بقدرِ استطاعتها في القيامِ بأداءِ بعضِ الأعمالِ الشَّاقَّةِ. من أجلِ أنْ تطعمَ تلك الأفواهَ الجائعةَ.

فترةُ صمتٍ وجيزةٌ.

سألَ الفنَّانُ:

-ما الَّذي أوقفَك، ألا تردَّ الصَّفعةَ بصفعةٍ للطَّالبِ الَّذي كانَ يكبُرُكَ بعامينِ فقط؟

- لا أعرفُ حقًا.

-رُبَّما الدَّهشةُ.

- هذا مُمكنٌ.

تدخَّلَ الكاتبُ ليدافعَ عَنِ العاملِ ضدَّ التَّاجرِ الَّذي لم يكنْ يقفُ عن طرحِ الأسئلةِ قائلًا:

-أعتقدُ أنَّهُ تلَّقى تربيةً سليمةً في البيتِ، ولم يكُن عندَه ميولٌ عدوانيَّةٌ قويَّةٌ كما كانَ عندَ بعضِ الطُّلَّابِ، ولم يتعلَّمْ منذُ الصِّغرِ أن يدخُلَ في العراكِ والضَّربِ بالأيدي مع الأطفالِ الآخرينَ من نفسِ سنِّهِ، وبذلك وجدَ نفسَهُ أثناءَ تلقِّي الصَّفعةِ عاجزًا عَنِ المقاومةِ والتَّصدِّي بالمثلِ.

عقَّبَ التَّاجرُ:

-بالنَّسبةِ إليَّ أعدُّهُ جُبنًا منه، وكانَ يجبُ عليهِ أن يردَّ الصَّاعَ صاعينِ.

ردَّ الكاتبُ:

-لستُ معكَ في هذه النُّقطةِ بالذَّاتِ، وإنَّني على قناعةٍ تامَّةٍ أنَّ الولدَ الَّذي صفعَهُ كانَ ذا شخصيَّةٍ سيكوباتيَّةٍ مُعاديةٍ للمجتمعِ حتَّى العظمِ، وهو بطورِ التَّصعيدِ المستمرِّ نحو الشَّرِّ، فهو شيطانيُّ النَّزعةِ والسُّلوكِ.

سألَ التَّاجرُ:

- وماذا بشأنِ الصَّفعةِ الثَّانيةِ؟

أجابَ الكاتبُ:

-لا يمكننا اتِّهامُ معلِّمِ الرَّسمِ بأنَّهُ ذو شخصيَّةٍ مُضطربةٍ.

-وما تفسيرُك إذًا لتلكَ الصَّفعةِ يا سيدي الكاتبَ؟

-سأقولُ بكلِّ صراحةٍ رأيي في ذلكَ: إنَّهُ غباءٌ من المُعلِّمِ الَّذي كانَ ردُّهُ سريعًا في اتِّخاذِ قرارِهِ المجحفِ بهذهِ السُّرعةِ، كان عليهِ أن يتروَّى. وكانَ عليهِ بالدَّرجةِ الأولى أنْ يتقصَّى الحقيقةَ قبل كلِّ شيءٍ، والَّتي تهديهِ إلى الفاعلِ الَّذي قامَ بافتعالِ الصَّخبِ من خلفِهِ، لأنَّهُ كان يديرُ ظهرَهُ لهم، فأنا أعدَّ صفعةَ المعلم ظلمًا وعدوانًا بحقِّ الطَّالبِ البريء، بينما تَرَكَ الطَّالبَ المُسيءَ دونَ عقابٍ.

وتابعَ الكاتبُ:

-كما يقولُ المثلُ العامِّيُّ: "ياما في الحبس مظاليم".

سألَ الفنَّانُ:

-وما تفسيرُكَ بالنِّسبةِ إلى صفعة الموجِّهِ المدرسيِّ؟

أجابَ مُديرُ الحوارِ:

-إنَّها شبيهةٌ بصفعةِ الطَّالبِ في الصَّفِّ الثَّالثِ الإعداديِّ باستراحةِ المدرسةِ.

وتابعَ المُديرُ:

-إنَّ الاختلافَ الوحيدَ في الأمرِ، هو استعمالُ الموجِّهِ سلطتَهُ في التَّرهيبِ والتَّرغيبِ، وبالتَّالي لم ينجحْ ذلكَ الأسلوبُ بالضَّغطِ الكافي، وقطفِ ثمارِ نتائجهِ بتلكَ اللَّحظةِ، عندما رفضَ الطَّالبُ عيد الانتِسابَ ضمنَ صفوفِ الشَّبيبةِ، فخرجَ الموجِّهُ عن طورِهِ، وهذا يدلُّ بأنَّه ذو شخصيَّةٍ شيطانيَّةٍ، قد تجاوزَ أعلى مراتبِ الشَّرِّ والعدوانِ، وإيقاعِ الأذى بالأبرياءِ الَّذين لا يرضخونَ بسهولةٍ إلى تنفيذِ أوامرِهم على وجهِ السُّرعةِ، وأرى أنَّ الولدَ صاحبَ الصَّفعةِ الأولى بالصَّفِّ الثَّالثِ الإعداديِّ، سيصبحُ مثلَ شخصيَّةِ الموجِّهِ بالمستقبلِ العاجلِ القريبِ، إذا ما وصلَ إلى عمرِ الموجِّهِ المدرسيِّ، ويمكنُ أن يُزايدَ عليهِ بِعمليَّةِ العدوانِ على المُسالمينَ، ومن صفاتِ هذهِ الشَّخصيَّةِ المُضطربةِ أيضًا عدمُ التَّورُّعِ عن القتلِ وسفكِ الدِّماءِ على أتفهِ شيءٍ ممكنٍ.

توقَّفَ الحديثُ.

*** *** ***

الآنَ بدأَ الحديثُ مُجدَّدًا.

في الصَّفِّ الثَّاني الإعداديِّ كنتُ من الأوائلِ متفوِّقًا على أقراني بجميعِ الموادِّ، وكذلكَ في مادَّةِ الرَّسمِ، وكان هناكَ طلبٌ مُلحٌّ من الطُّلَّابِ بحجزِ دورِهم على دفترِ الرَّسمِ الَّذي أملكهُ إذا ما امتلأ بالرُّسومِ، دائمًا أشعرُ بالغبطةِ عندما يطلبونَ ذلك منِّي، ولكنْ بالرَّغمِ من صِغر سنِّي تراني في أغلبِ الأوقاتِ منطويًا على نفسي، أُفكرُ في تحسينِ وضعِ البشريَّةِ بشكلٍ عامٍّ. فكان لديَّ مشروعُ تفكيرٍ عميقٍ برأسي، أحاولُ بقدرِ الإمكانِ مُناقشتَهُ مع زُملائي أثناء دوامِ المدرسةِ أو ضمن إطار الحيِّ أو الشَّارعِ أو أينما أكونُ. لو أنَّني ولدتُ في بلدٍ مثلُ أمريكا أو روسيا أو أوروبا لكنتُ عملتُ بإحدى وكالاتِ الفضاءِ، وقد أجدُ حلًّا لمشكلةِ جشعِ الإنسان وتعلُّقهِ بالمادَّةِ. والمادَّةُ عنصرٌ فتَّاكٌ، يقتلُ الإنسانُ لأجلِها أخاهُ الإنسانُ، حيثُ يستعبدُهُ، ويستعمرُهُ، ويقتلُهُ، ويصلُ الأمر به إلى حدِّ الإبادةِ الجماعيَّةِ والفَناءِ الأبديِّ، يجعلُهُ راكعًا خاضعًا ذليلًا جائعًا، فأنا متأكِّدٌ أنَّني لو أكملتُ تعليميَّ خارجَ

البلادِ لوجدتُ حلًّا لهذه التَّراجيديا البشريَّةِ المؤسفةِ الَّتي يمرُّ بها النَّاسُ جميعًا، ولهذه المُعاناةِ والمأساةِ الكُبرى الَّتي لا تنتهي، لقد ظهرت مع استئناسِ الإنسانِ وظهورِ الحضارةِ منذ بداياتها الأولى، وتدجينِ الحيواناتِ الأليفةِ، لأنَّني لا أشكُّ في نفسي وفي قدرةِ ذكائي الخارقِ بأن أوصلَ الإنسانَ إلى المجرَّاتِ البعيدةِ، غيرِ مجرَّةِ دربِ التَّبانة الَّتي نعيشُ فيها، يمكن القول إنَّ هناك المليارات من المجرَّات والمليارات من الشُّموس مثلَ شمسنا الَّتي تمدُّنا بطاقةِ الحياةِ في هذا الفضاءِ الأسودِ الشَّاسعِ، وبوصولنا إلى أحد تلك الكواكبِ الَّتي فيها الحياة، أي شبيهٍ بكوكبنا الأرضيِّ، حيث سيجدُ ملياراتٌ من البشرِ فرصةَ الانتقالِ إلى هناك، فيكونُ لكلِّ شخص كوكبٌ خاصٌّ به فقط، ويكونُ من حقِّهِ جميع ممتلكاتِ ذلك الكوكبِ الَّذي وجدَ عليهِ الحياةَ. ويُصبحُ ملكًا خاصًّا أي طابو أخضر بِكُلِّ فرد، لا أحدَ يشاركه في الحكمِ، نظامهُ أبديٌّ لا يحتاجُ إلى انتخاباتٍ هناك، غيوم تلك الكواكب تتلبدُ بهطولِ أمطارٍ ماسيةٍ وأحجارٍ كريمةٍ. وهناك كواكبُ أخرى جبالها من

الذَّهبِ والبلاتين. ويتحقَّقُ بهذا حُلم الانتقالِ ما بين الكواكبِ، أن يحصل كلُّ فردٍ يعيشُ في كوكبنا الأرضيِّ على حقِّهِ هناك، وبالتَّالي يبدأ أفولُ مرحلةِ الاستغلالِ، وتنتهي مرحلةُ فرضِ القوَّةِ في إدارةِ هذا العالمِ.

للأسفِ الشَّديدِ تبخَّرَتْ كُلُّ آمالي وأمنياتي وأحلامي بالحياةِ وضاعت أفكارُ مستقبلي العلميِّ المتعلِّقِ بتنفيذِ مشروعِ الانتقالِ إلى الفضاءِ الخارجيِّ عبر مماراتِ ثقوب الدِّيدانِ فيما بينها، لخلاصِ البشريَّةِ من عذاباتها الدَّائمةِ، وتأمينِ مستقبلٍ لجميعِ سكانِ الأرضِ؛ فتلاشتْ آمالي بتحقيقِ مشروعي كخيطِ دخانٍ يتصاعدُ إلى الفضاءِ ويختفي فجأةً بموتِ أبي المفاجئ.

فقال التَّاجرُ:

-أنا متلهِّفٌ جدًا للأسئلةِ.

قاطعَهُ الكاتبُ:

-انتظر، لَّما يحنْ وقتُ الأسئلةِ.

كانَ مُديرُ الجلسةِ والحوارِ بكافتيريا التَّصفيةِ حريصًا على تطبيقِ قواعدِ النِّظامِ بحذافيرها، وقد نجحَ بذلكَ حتَّى الآن بامتيازٍ، بالرَّغمِ مِنْ أن الجلسةَ الأولى لَمَّا تشارفْ على انتهاءِ وقتِها.

مُتابعةُ الحديثِ.

في عصرِ أحدِ الأيامِ جئتُ إلى البيتِ، فرأيتُ عيني أمِّي مُحمرتين كالجمرِ وسط صفحةِ وجهها الكئيبِ، وكانت جالسةً خلف رأسُ أبي. خمنتُ عندها بمرض أبي، لأنَّنا لم نألف وجودهُ في البيتِ بهذا التَّوقيتِ الغريبِ، والمعروفُ أنَّهُ كان يأتي إلى البيتِ مع حلول الظَّلامِ، ثُمَّ فهمتُ من أمِّي أنَّ أبي كانَ يُعاني من ألمٍّ حادٍّ في صدره، وتنميلٍ متواصلٍ في يدِهِ اليسرى، وأتذكَّر أنَّنا نمنا بذلكَ اليوم قلقينَ إلى حدِّ الاكتئابِ، وفي الصَّباحِ ذهبَ أبي وأمِّي معًا إلى طبيبِ القلبِ. وبعد المُعاينة والفحص الدَّقيقينِ، وإجراءِ اختبارِ الجهدِ، أخبرَ الطَّبيبُ بعد التَّشخيصِ أنَّ أبي عليه القيام بتغييرِ الصَّمَّامِ التَّاجيِّ. وهذا يعني إجراء عملية قلبٍ مفتوحٍ، ونصحهُ بعدمِ التَّأخُّر لمدة تزيدُ على أسبوعٍ واحدٍ، وإذا تجاوزَ المدَّةَ المحدَّدةَ

ولو بيومٍ واحدٍ، فإنَّهُ سيختنقُ بالذَّبحةِ الصَّدريَّةِ الحادَّةِ، وبالفعلِ مات أبي بعدَ المدَّةِ الَّتي حدَّدَها الطَّبيبُ بيومٍ واحدٍ؛ لأنَّه تأخَّرَ بيومٍ واحدٍ عن إجراءِ عمليَّةِ القلبِ المفتوحِ.

جاءَ أبي وأمي إلى البيت من عندِ الطَّبيبِ، وكأنَّهما يحملانِ أثقالًا مُضاعفةً من الأحزانِ والهمومِ في قلبهما اليائسين. كنتُ أسترقُ السَّمعَ وأنا قريبٌ منهما. كانت أمِّي تسألُ أبي:

-من أينَ لك أجرةُ العمليَّةِ؟

فأطرقَ أبي مُفكرًا وأجابَها:

-غدًا سأذهبُ إلى بعضِ المعارفِ والجيران، لأستدينِ منهمْ المبلغَ بالفائدةِ.

لم يكُنْ أبي يملك سوى قوتِ عملِهِ اليوميِّ، حتَّى لا يكادُ يكفي لمعيشةِ يومٍ واحدٍ. وفي اليومِ الَّذي تلاه، حاول أن يذهبَ إلى هؤلاءِ، وكاد يستجب واحدٌ منهم لطلبهِ بأن يُقرضهُ أجرةَ العمليَّةِ لكنَّهُ غيَّرَ رأيهُ فيما بعدُ بحجَّةِ أنَّه من أينَ سيفي بدينِهِ إذا ما

أتى وقتُ التَّسديدِ للدَّفعِ؟ ومنهم من برَّرَ موقفَهُ بِكلِّ سماجةٍ بخلقِ حججٍ وذرائعَ لا أساسَ لها من الواقع، وأكَّدوا لَهُ إذا ما فارقَ حياتِهِ أثناءِ إجراءِ العمليَّةِ من سيدفعُ لنا مُستحقاتِنا معَ الفائدةِ، وهكذا عادَ أبي من جولتِهِ صفرَ اليدينِ، لم يُحقِّقْ غايتَهُ بما كانَ عازِمًا عليهِ في تجميعِ أُجرةِ عمليَّةِ القلبِ المفتوحِ، وأتذكَّرُ بعينِ الخيالِ الثَّالثةِ ما دارَ بينَ أبي وأمِّي في ذلكَ المساءِ عقبَ عودتِهِ إلى البيتِ. بأنْ لا أحدَ من أولئك الأقرباءِ ولا الجيرانِ ولا الأصدقاءِ قامَ بإقراضِهِ المالَ. رأيتُ أبي يبكي أوَّلًا ويقولُ لأمِّي:

- سأموتُ قريبًا.

فبدأت أمِّي الحزينةُ تُشاركه سيمفونيةَ النَّشيجِ مُصاحبًا بالبكاءِ المتقطِّعِ، كنتُ أشعرُ بخيبةِ أملٍ كبيرةٍ، ومرارةٍ حادَّة تضامُنًا مع حالةِ والدي المزريةِ، ولكن ما كانَ باليدِ حيلةٌ لمواجهةِ الفقرِ الَّذي حلَّ بنا. كانت اللَّحظةُ أكثرَ قساوةً، عندما أفقتُ في الصَّباحِ الباكر، وما زال اللَّيلُ غابشًا يُخيمُ على الأجواءِ استيقظتُ على صياحِ أمِّي وهي تولولُ وتندبُ حظَّها بهذهِ الدُّنيا القاسيةِ قائلةً:

- يا ناس! لقدْ ماتَ الرَّجلُ، لقدْ ماتَ الرَّجلُ.

اعتقدتُ حينها أنَّ الدِّيوكَ شاركَتْ أمِّي الثَّكلى في حزنِها على فقدانِ زوجِها ومُعيلِها الوحيدِ بهذا العالمِ. تجمَّعَ الجيرانُ على صيحاتِ أمِّي وصرخاتها المتكرِّرةِ على فقدانِ أبي، وهو لا يزالُ بعمرِ الشَّبابِ. لم يصلْ أبي إلى المشفى وقد أسلمَ الرُّوحَ في البيت تحتَ سقفِ بيتِهِ، وهذا كان من حسنِ حظِّهِ؛ لأنَّهُ احتفظَ بصورتي وصورةِ أمِّي وأولادِهِ الصِّغارِ بذاكرتِهِ قبلَ الوداعِ إلى مثواهُ الأخيرِ. لو أنَّهُ ماتَ على الطَّريقِ أو في المشفى ما كانَ ليحتفظَ بتلكَ الصُّورِ معَهُ إلى ذلك المكانِ الجديدِ الَّذي انتقلَ إليهِ لتوِّهِ، انتهى دورُ أبي من حياتنا القادمةِ؛ تاركًا مصيرَ أسرتِهِ بيدِ قدرٍ غاشمٍ يلعبُ به، كما تلعب الرِّياحُ بأوراقِ الأشجارِ في فصلِ الخريفِ. كانَ أبي عمودَ البيتِ الَّذي نعتمدُ عليهِ في حياتنا، وكانت أمِّي عمودَ الأطرافِ القصيرَ الَّذي يسندُ الخيمةَ معهُ، وعندما وقعَ العمودُ الرَّئيسيُّ أصبحَ الثِّقلُ بالكاملِ على كاهلِ أمِّي، لقد حزنتُ كثيرًا مع أمِّي على فِراقِ أبي المفاجئ لنا، وتركنا وحيدين وسطَ

غابةٍ مليئةٍ بالوحوشِ البشريَّةِ. إذًا عليَّ أن أُساعدَ أمِّي في بعضِ الأعمالِ من أجلِ تخفيفِ الحملِ الثَّقيلِ على كاهلِها. لقد تركَ أبي مجموعةً من الفراخِ الصَّغيرةِ الجائعةِ بِعُهدةِ أمِّي، لأنَّها بقيت المُعيلةَ الوحيدةَ لأفرادِ أُسرتها.

كنتُ أقدِّمُ امتحاناتي النِّهائيَّةَ، وكنتُ أوَّلَ من ينهي الامتحانَ في مدَّةٍ أقصاها لا تتجاوزُ نصفَ ساعةٍ تقريبًا دونَ مراجعاتٍ للأسئلةِ الَّتي انتهيتُ من حلِّها، خوفًا على ضياع الوقتِ الثَّمينِ لمساعدةِ أمِّي. كانت أمِّي حينها تعملُ في أرضِ جدِّي، بإحدى المناطق التَّابعةِ للمدينةِ، وكانت المسافةُ بينهما تُقدَّرُ بحوالي عشرةِ كيلومتراتٍ تقريبًا. كنت أهرعُ من الامتحاناتِ باكرًا، فأركبُ دراجتي الهوائيَّة نوع بيجو صيني. ذات اللَّونِ الأسودِ. مثلِ حظِّ أمي التي قُدِّرَ لها أن تعيش منفردة دونَ زوج يُعينها ويحميها من غدرِ الزَّمانِ، كانت أمِّي تقومُ بعملِ الرِّجال والنِّساءِ معًا، لأنَّها مُضطرَّةٌ لأنْ تكرِّسَ وقتَها وتُضحي لأسمى غايةٍ بالوجودِ وهي أولادُها الصِّغارُ. كنتُ أقطعُ تلك المسافةَ

الطَّويلةَ حتَّى أصلَ إلى مكانِ عملِ أمِّي المسكينةِ. ما أن أصلَ حتَّى أبدأَ في مساعدتها بعزقِ النَّباتاتِ الزِّراعيَّةِ ومعالجتها حتَّى وقتٍ مُتأخِّرٍ من بعدِ الظُّهرِ، وعندما أنهي عملي أمتطي ظهرَ دراجتي ثانيةً عائدًا إلى المدينة. هكذا كنتُ أفعلُ طَوالِ فترةِ تقديمِ الامتحاناتِ النِّهائيَّةِ للصَّفِّ الثَّاني الإعداديِّ، وعندما أتى وقتُ النَّتائجِ الأخيرةِ حصلتُ على أعلى العلاماتِ مع الحصولِ على الثَّناءِ، ما فائدة أن تكونَ الأوَّلَ على صفِّكَ أمام المُصيبةِ الَّتي ألـمَّت بنا، فرحيلُ أبي عنَّا إلى الحياةِ الأخرى جعلَني ألقى مصيرًا مأساويًّا من بعدِهِ. وساعدتُ أمِّي الوحيدةَ بالعملِ المتواصلِ والمستمرِّ لانتشالِ أفرادِ عائلتي الصِّغارِ من موتٍ مُحقَّقٍ. بالرَّغمِ من إيمانِ أمِّي القويِّ كانت تُهاجمها لحظاتٌ كئيبةٌ تندبُ فيها حظَّها التَّعسَ فتقولُ:

-آهٍ.. يا أبا عبدِ الرَّحمن. يا ليتني كنتُ مُمدَّدةً في قبري إلى جانبِ قبرِكَ.

ولن ألومَ أمِّي بشأنِ هذا الكلامِ التَّعس؛ لأنَّ ظروفَ الفقرِ الَّتي مررنا بها في وقتٍ من الأوقاتِ اللاحقةِ لوفاة أبي لا يمكنُ مُقاومتَها بسبب قساوتِها الشَّديدةِ.

كانت أمِّي تذهبُ إلى محلِّ بيعِ الفرُّوجِ، ولكثرةِ ما كانت تطلبُ من صاحبِ المحلِّ أرجلَ الدَّجاجِ المذبوحِ، فكرر الرَّجلُ على مسمعها قائلًا:

-يا خالة، أعندكم كلابٌ كثيرةٌ تُطعِمونها أرجلَ الدَّجاجِ؟

جلستْ أمِّي على الأرضِ فبكَتْ بحرقةٍ، وسدَّتْ غصَّةٌ خانقةٌ حلقَها دونَ أن تُكملَ كلامَها. نعم عندها كِلابٌ بشريَّةٌ صغيرةٌ بحاجةٍ ماسَّةٍ إلى الطَّعامِ، ولم تكُن أمِّي التَّعيسةُ تمتلكُ مالًا لشراءِ لحمِ الضَّأنِ أو لحمِ الفروجِ المذبوحِ. وبعدَ تلكَ الحادثةِ غيَّرَتْ أمِّي سياستَها، غيَّرتِ المكانَ الَّذي ذهبت إليهِ في المرَّة الأولى، من أجلِ ألَّا ينكشفَ سرُّها وتفضحَ في الحارةِ؛ لأنَّها كانت عزيزةَ النَّفسِ خجولةً، لا ترضى أن تَذِلَ نفسَها لغيرِ الخالقِ الَّذي

خلقها. نعم صمدت أمِّي في البدايةِ، وأعتقدُ أنَّها نجحت في النِّهايةِ.

حلَّتْ فترةٌ توقَّفَ فيها العملُ، ولم نكنْ نملكُ في البيتِ ليرةً واحدةً تُمكِّننا من شراءِ رغيفِ خبزٍ. لم نمتلك في بيتنا آنذاك غيرَ ماءِ البئرِ، وبمعيةِ أخي الأوسطِ بالرَّغمِ من صِغرِ سنِّهِ إلَّا أنَّهَ تطوَّعَ مثلَ فدائيٍّ مُحاربٍ لكي يعملَ بالتَّحميلِ في سوقِ الهالِ، كانَ يهرعُ إلى العملِ من السَّاعةِ العاشرةِ مساءً وحتَّى العاشرةِ صباحًا. فكانت الأجرةُ حقَّ ربطتين مِنَ الخبزِ الحلبيِّ الرَّقيقِ، وعلى هذا المنوالِ ظلَّ أخي يعملُ هناكَ طَوالَ شهرينِ متواصلينِ، حتَّى نجدَ عملًا لي، ونجدَ عملًا لأمِّي.

هناك قصَّةٌ أبشعُ منها بكثيرٍ حدثت معنا، لن أنساها أبدًا. في أحدِ الأيامِ اللاحقةِ، أصبحنا أنا وأمِّي عاطلينِ عن العملِ وكأنَّها لعنةٌ ظلتْ تلاحقُنا طولَ العمرِ، كانت أمِّي تلحُّ عليَّ بلا توقُّفٍ قائلةً:

-ابحثْ عن عملٍ.. ابحثْ عن عملٍ.

إذًا لا مفرَّ كي أبحثَ بمدينةِ الحسكة عنِ العملِ الَّذي تطلبُهُ منِّي أمِّي العاطلةُ عن العملِ، لأنَّنا كُنَّا نسكنُ بمدينة القامشلي وقد توقفنا عن العملِ تمامًا، ولم يبقَ مكانٌ إلَّا وبحثنا فيه دونَ جدوى.

أخيرًا قرَّرتُ الرَّحيلَ في صباح اليومِ التَّالي، عملًا بنصيحةِ أمِّي، وشرعت بالذَّهابِ إلى مدينة الحسكة. لقد وصلت في السَّابعةِ صباحًا، وفور وصولي إلى حُضن المدينةِ نزلتُ من الميكرو سريعًا، وبحثتُ بجدٍ ونشاط بِكلِّ أحياءِ المدينةِ، وعندما صارت السَّاعةُ الثَّانيةَ بعدَ الظُّهرِ، وأنا أمشي على قدميَّ أنتقِلُ من حيٍّ إلى آخرَ دونَ الحصولِ على عملٍ بالأُجرة، وبينما كنتُ أتقدَّمُ في أحد الشَّوارعِ، أبحثُ عن مصدر رزقٍ شممتُ رائحةَ طعامٍ قويَّةٍ تضربُ بشدةٍ الخلايا الشَّمِّيَّةِ في أنفي. أحسستُ حينها أنَّني لستُ سوى كلب ضالٍ يتضوَّرُ جوعًا، ولكن من الَّذي سيشعرُ بجوعي الَّذي كان يسحقني من الدَّاخلِ، فأقول لنفسي:

-آهٍ.. لو كنتُ الآن مع أفرادِ تلكِ العائلةِ على طاولةِ طعامِهم وهم يتلذَّذونَ بتلك المأكولاتِ الشَّهيَّةِ.

كم هو صعبٌ شعورُ الجوعِ الشَّديدِ الَّذي لا يوصفُ. شعورٌ ممزوجٌ باليأسِ والتَّعبِ، ففكَّرتُ بكلامِ أمِّي عندما كانت تتذمَّرُ لتصلَ إلى حدِّ الإحباطِ والقنوطِ والاستسلامِ، فبدأتُ أردِّدُ كلامَها وأقولُ:

-يا أُماهُّ لو كنتُ الآن مُمددًا في قبرٍ بِجانب قبرِ أبي.

ولكنَّني أعرِفُ ذلك حقَّ المعرفةِ أنَّهُ ليسَ بالحلِّ الأنسبِ لوضعِنا، ولكنْ هذا عزائي الوحيدُ أُمنِّي بهِ نفسي لكي أُخفِّفَ بِهِ من عذابِ الجوعِ الَّذي ألحَّ على معدتي الفارغةِ، وكان الجوعُ يَطعَنُني بِسكاكينهِ الحادَّةِ بِلا رحمةٍ. وقد بقيتُ حتَّى وقتٍ متأخِّرٍ من بعد ظُهرِ ذلكَ اليومِ، ولم يُفلحْ بحثي عن أن أجدَ ذلكَ العملَ الَّذي يُشبِهُ السَّرابَ بالنِّهايةِ، ورجعتُ إلى مدينتي خائبًا، وأنا أُجرجِرُ قدميَّ ورائي بِصعوبةٍ بالغةٍ، وكُلُّ قدمٍ من قدميَّ أصبحَ

بحجمِ جبلٍ شاهقٍ، وما أنْ فُتِحَ بابُ البيتِ في وجهي، وأنا عائدٌ من تلكَ الرِّحلةِ الخائبةِ، استقبلتني أمِّي ضامَّةً أُختي الصَّغيرةِ إلى حُضنها الدَّافئ بِشدَّةٍ خوفًا عليها من السُّقوطِ. وظلتْ تبكي وتنشجُ كلَّ الوقتِ، وقد جلست بجانبي على الأرضِ، ثمَّ شرحَتْ أمِّي ما حصلَ معها بغيابي منذُ أنْ غادرتُ البيتَ صباحًا. وهي تقولُ إنَّ جماعةً من أقرباءِ جيراننا يسكنونَ بالشَّامِ، وأنَّ اللهَ لم يرزقهم بالأولادِ، فقالَ لهم الجيرانُ إنَّ لدينا أولادًا كثيرين، فاقترحوا عليهم أن يشتروا طفلًا صغيرًا من أجلِ التَّبنِّي، وحصرًا يُريدونَ بنتًا صغيرةً. وأنا وافقتُ على بيع أُختك الصَّغيرةِ لهم مُقابل المالِ، وأكَّدت أمِّي ممَّا لا يدعُ مجالًا للشَّكِّ. بأنَّنا إنْ لم نقُم بذلك العملِ سنموتُ جوعًا واحدًا وراءَ الآخرِ. فلتكنْ تلكَ الطِّفلةُ الصَّغيرةُ قُربانًا بشريًّا على مذبحِ التَّضحيةِ، لإنقاذِ ستِّ أرواحٍ آخرينَ غيرَها. وبعدَها تمَّتِ الصَّفقةُ بنجاحٍ، وحصلنا على مبلغٍ يسدُّ رمقَ الجائعينَ ليسَ إلَّا. كانَ المُتبنِّي من أغنياءِ التُّجارِ، وبهذهِ الصَّفقةِ البشريَّةِ انتشلَنا من جوعٍ كادَ يُودي بنا. فخفَّفَ

بذلكَ من وطأةِ الجوعِ الثَّقيلِ عن كاهلنا، ولكنَّ حزنَ أمِّي كانَ أقوى على فِراقِ ابنتِها، ولكنْ معَ مرورِ الأيامِ خفَّتْ آثارُ تلكَ المُصيبةِ، ولكن لن تُنسى، ولن تُمحى من ذاكرتنا الجماعيَّةِ إلى الأبدِ.

وسكَتَ.

فقالَ الكاتبُ:

- فليكنْ حوارًا جماعيًّا لأنَّنا اقتربنا من انتهاءِ موعدِ الجلسةِ.

فوافقَ الجميعُ دونَ اعتراضِ أيِّ واحدٍ مِنَ الأصدقاءِ.

فقالَ العاملُ:

-أظنُّ أنَّني أخبرتُكم بِكلِّ شيءٍ عن حياتي السَّابقةِ.

ردَّ الكاتبُ:

-حقًّا إنَّها حياةٌ قاسيةٌ ومؤلمةٌ جدًّا.

قاطعَهُ التَّاجرُ:

-وأنا أيضًا متَّفقٌ معكَ بهذا الشَّأنِ.

وتدخَّلَ الفنَّانُ:

-إلا باستثناءِ مشروعِ غزوِ الفضاءِ الخارجيِّ، ولكنَّني أعدُّهُ نزعةً داخليَّةً، وارتفاع درجةِ المشاعرِ والأحاسيسِ لدى صاحبِنا سببها تلكَ الظُّروفُ القاسيةِ والصَّعبةِ الَّتي كانَ يمرُّ بها هو وأهلُهُ جميعًا في ذلكَ الوقتِ العصيبِ.

أجابَ التَّاجرُ:

- أظنُّ أنَّهُ مِنَ الإجحافِ أن نُقلِّلَ من مستوى ذكائهِ الحادِّ، لأنَّ الرَّجلَ كما ذكرَ لنا أنَّه كانَ من المتفوِّقينَ على صفِّهِ مِنَ الأوَّلِ الابتدائيِّ لغايةِ تركهِ التَّعليم، تحت ظروفٍ قاهرةٍ قد ذكرها لنا من قبلُ، وقد ظهرَتْ لديه منذُ بواكيرِ عمرِهِ موهبةُ الرَّسمِ.

علَّقَ الكاتبُ على كلامِ التَّاجرِ:

-أنا متأكِّدٌ أنَّ العلمَ قادِرٌ في يومٍ منَ الأيامِ على أن يجدَ كوكبًا يشبهُ كوكبنا الأرضيَّ الَّذي نعيشُ عليه، وتُضيئهُ نفس شمسنا؛ وبذلك يكونُ انتقالُنا إليه يُقدِّمُ لنا فرصةً نادرةً للتَّقدُّمِ نحو كواكبَ أخرى، وبهذا قد تشرَعُ في وجهِ الجنسِ البشريِّ أبوابُ الفضاءِ الشَّاسعةِ إلى ما لا نهاية.

تابعَ الكاتبُ:

-ولكنَّ طمعَ الإنسانِ الزَّائدِ، وتوقَهُ إلى أقصى درجات الجشعِ يمنعانِهِ من اتِّحادِ الجهودِ البشريَّةِ في هذا الشَّأنِ، وأنا أتأسَّفُ كثيرًا، لأنَّهُ باعتقادي سنستيقظُ في يومٍ ونجد كوكبنا قد اندثرَ وتلاشى مِنَ الوجودِ بغمضةِ عينٍ، وأضحى غُبارًا وذراتٍ ناعمةً مِن التُّرابِ، تناثرَ بينَ الكواكبِ الأخرى، ويضعَ بذلك نهايةً لكلِّ شيءٍ في العالمِ.

ردَّ الثَّلاثةُ معًا:

-لقد أفزعتنا.

-نعم. هناك نهايةٌ لكلِّ شيءٍ.

-والحلُّ؟

-الحلُّ بيدِ الأقوياءِ الَّذينَ يحكمونَ عالَمَنا المُعاصرَ.

واتَّفقوا أربعتهم على عدمِ الخوض في مناقشةِ الأمورِ الأخرى؛ لأنَّهم كانوا يعرفون أنَّ السَّببَ هو داءُ الفقرِ المستفحلِ في جميعِ أنحاءِ الكرةِ الأرضيَّةِ. وهو داؤها الَّذي لا دواءَ له.

ثُمَّ رُفِعَتِ الجلسةُ الأولى إلى شهرٍ آخرَ، حتَّى تُعقدَ الجلسةُ الثَّانيةُ في المكانِ نفسِهِ، ولكن هذهِ المرَّة معَ الفنَّان عبد الرحيم عيد.

الفصلُ الثَّالث

عبد الرحيم عيد

دخلَ الرَّجلُ الخمسينيُّ مرَّةً ثانيةً إلى **كافتيريا التَّصفية**. وذلك بتاريخِ 23فبراير/ شباط، ليلتقي فيها معَ أصدقائهِ بذلك اليومِ بالذَّات، وفورَ دخولِهِ طلبَ حجز طاولةٍ بثلاثِ كراسي، بدلًا من أربعةِ كراسي كما في المرَّةِ السَّابقةِ من اجتماعهم هنا. عندما التفتَ من حولِهِ رأى جملةً من التَّغيُّراتِ الَّتي طرأت على المكانِ، كانت الملاحظةُ الأولى الَّتي تهيأت له، أنَّهُ لم يجد تلك الفتاةَ ذات القُبحِ الشَّديدِ، فوجدَ مكانَها شاغرًا لا يشغُله أحدٌ من العمالِ، لقد استنتجَ الرَّجلُ في ذهنهِ عدَّةَ احتمالاتٍ بشأنِ غيابِ الفتاةِ. ربَّما كانت في إجازةٍ مرضيَّةٍ، أو ربَّما قد تزوجت حديثًا فتكونُ الآنَ تقضي فترة شهرِ العسلِ بأحدِ فنادقِ العاصمةِ، أو أيَّةِ مدينةٍ أخرى تحلو لها، أو ربَّما قد طُردت من عملها بسبب غلطةٍ بسيطةٍ منها، وأنَّ أصحابَ عملها يبحثونَ الآنَ عن موظفةٍ أقبحَ

منها لتحلَّ محلَّها وراءَ الطَّاولةِ الطَّويلةِ، ثُمَّ نظرَ إلى جميعِ الجدرانِ من حولِهِ عساهُ أن يرى ورقةً مكتوبًا عليها عبارةُ (يلزمنا آنسةُ للعملِ)، فلم يرَ شيئًا كهذا، سرعان ما تراجعَ عن حزمة الأفكار الَّتي راودتْهُ بشأنِ اختفاءِ فتاةِ الطاولةِ الطَّويلةِ. وعدَّ ذلكَ في ذهنه نُقطةَ تراجعِ تناقضاتِ التَّصفيةِ في ذلك المكانِ، ولكنْ سرعانَ ما لفتَ انتباهَهُ شيءٌ آخرُ كانَ بِخصوصِ إدارةِ المحلِّ، حيثُ وجد الكرسي الَّذي كانَ يشغلُهُ العجوزُ. وجدهُ فارغًا تمامًا، ولم يجد سوى الشابِّ ذي الوجهِ النَّاعمِ، الَّذي كانَ يُدير المكانَ بأكملِهِ.

من علَّةِ هذا الرَّجلِ أنَّهُ يدقِّقُ كثيرًا في التَّفاصيلِ، ممَّا يجلبُ له مُعاناةً مُضاعفةً فيضاعفُ همومَهُ أضعافًا. الآن بدأت موجةٌ جديدةٌ مِنَ الأفكارِ بشأنِ اختفاءِ العجوزِ، فتوقَّعَ أن يكونَ العجوزُ قد ماتَ في أثناء فترةِ غيابِهِ عن هذا المكان، لأنَّ انقطاعَ فترةِ شهرٍ ليستَ بالقصيرة ليحصل فيها ألفُ تغييرٍ وتغييرٍ، جاءه خاطرٌ آخرُ ألا وهو أنْ يكونَ العجوزُ مريضًا، وهو الآنَ مُلزمٌ فراشَهُ.

سرعان ما قامَ بجردٍ صغيرٍ لخواطرِهِ المتلاحقةِ، واستقرَّ برأيه على سن التَّقاعدِ، ولكنَّ العجوزَ قد تجاوزَ سنَّ التَّقاعُدِ منذُ زمنٍ بعيدٍ. فاهتدى إلى شيء آخر. لا، لا يمكن إلَّا السَّفرُ، قد سافرَ إلى بلدٍ آخرَ. نظر إلى الجدرانِ من حولِهِ، صُعِقَ لرؤيةِ الطِّلاءِ الجديدِ. لقد هدأ توترهُ قليلًا بالنَّسبةِ إلى مسألةِ تلكَ التَّغييراتِ الَّتي وجدَها **في كافيتريا التَّصفية.**

فقالَ الكاتبُ:

-أهلًا وسهلًا بكم في اجتماعنا الجديدِ.

ردَّ الفنَّانُ:

-وبكَ أيضًا.

فقال التَّاجرُ باستفزازٍ:

-أهلًا بالكاتبِ العظيمِ.

أجابَ الكاتبُ بحدَّةٍ:

-لستُ عظيمًا كما قُلت من قبل.

وتابعَ الكاتبُ:

-لنستمعْ إلى قصَّةِ الفنَّانِ، وهذا أفضلُ من ضياعِ وقتنا الثَّمينِ في التُّرَّهات الفارغةِ. أليس كذلك يا صديقنا الفنَّان؟

-وهو كذلكَ.

تدخَّلَ التَّاجرُ مُقاطعًا الحوارَ:

-لنقرأ الفاتحةَ على روحِ صديقنا عبدِ الرَّحمن، ولندعُ لَهُ الله سبحانه وتعالى أنْ يغفرَ له ذنوبَهُ، ويجعل مثواه الجنةَ في الآخرةِ.

قالوا معًا:

-آمين.

لن أسردَ عليكم قصَّةَ حياتي مِنَ البدايةِ. حياتي الآنَ مبنيةٌ على ماضي صديقِنا عبد الرحمن، وأنتم تعرفون بالطَّبعِ إنَّ حياةَ المرءِ متَّصلةٌ مع بعضها بحلقاتٍ مترابطةٍ من المهدِ حتَّى اللَّحدِ

وهي تبدأُ من طفولتهِ حتَّى آخرِ مراحلِ شيخوختِهِ، والَّذي رحل عنا مُتقمِّصًا بشخصيَّةِ العامل. ذهب مع كلِّ أعمالِهِ وعذاباتِهِ إلى غيرِ رجعةٍ. لقد حللتُ مكانَهُ مُتَّخذًا مهنةَ المطربِ الشَّعبيِّ بدلًا من مهنةِ العاملِ، وعندما سلكتُ ذلك الطَّريقَ الجديدَ. بالطَّبعِ يجبُ عليَّ أن أتَّخذ أساليبي الخاصَّةَ لبلوغِ غايتي المنشودةِ. عليَّ السَّعيُ من أجل تطويرِ شخصيتي الجديدةِ، للحصولِ على لقمةِ عيشٍ بطريقةٍ تُريحُ جسدي وروحي معًا. ربَّما ستقولون لِمَ اخترتُ مهنةَ مطربٍ شعبيٍّ بالذَّات، فلا أستبعدُ تأثُّري الشَّديدِ بترنيماتِ أمِّي المستمرَّةِ. هي الَّتي جعلتني أقعُ بِحُب الأغاني والألحانِ الموسيقيَّةِ، عندما بلغتُ سنَّ الرُّشدِ والبلوغِ.

علَّقَ التَّاجِرُ مُقاطِعًا:

-لا تقُل إنَّكَ كنت مُطرِبًا شعبيًّا في بطنِ أمِّكَ.

قاطعهُ الكاتبُ:

-دَعِ الرَّجلَ يُكملُ حديثَهُ، فهناك مُتَّسعٌ مِنَ الوقتِ لطرحِ الأسئلةِ عليهِ.

أجابَ الفنَّانُ:

-دعه يسألْ، فأنا أعرفُ كيف أُدافِعُ عن نفسي، وأنْ أعطيَهُ الجوابَ الشَّافي.

وتابعَ الفنَّان بحماسٍ:

-والآنَ ستسمعُ ردِّي بشكلٍ واضحٍ فلا تستبقِ الأحداثَ، وهذا أفضلُ لنا جميعًا.

دائمًا كنتُ أقولُ: إذا أحببت شيئًا، أيَّ شيء يمكن أن يخطرَ على بالك، وأردتَ أن تتعلمه، فما عليك إلَّا الانضمام إليه والالتحاقَ بِه بأقصى سرعةٍ مُمكنةٍ، من أجل أن تتعلَّم بالطَّبعِ، ولكنْ لا بُدَّ من امتلاكِ إرادةٍ قويَّةٍ، وذكاءٍ وِراثي. إضافةً إلى عملٍ متواصلٍ. ويجبُ القبولُ بالدَّورِ الَّذي يتمُّ الإسنادُ بِهِ إليك في بداية الالتحاقِ بالمهنةِ أو الوظيفة الَّتي اخترتها، مهما كانَ دورُك فيها

سيئًا أو رديئًا، المُهمُّ في العمليَّةِ بِرمَّتها هو التَّفاعلُ الإيجابيُّ مع عناصرِ المجموعةِ وكسبِ ثِقتُها. إنْ كانَ ذلكَ في العمل أو الوظيفةِ كما أسلفنا.

انضممتُ إلى إحدى الفرقِ الشَّعبيَّةِ؛ فأسندوا إليَّ مهنةَ حاملِ الأدواتِ الموسيقيَّةِ، فقبلتُ دوري عن طيب خاطرٍ، أينما توجَّهَتِ الفرقةُ لإحياءِ حفلاتها، وإلى أيِّ منطقةٍ، وحتَّى لو كانت الحفلةُ تُقام خارجَ القطرِ؛ فأنا ملتزمٌ بالذَّهابِ معهم كعضو جديدٍ، قبلتُ على نفسي بذلك الدَّورِ البسيطِ. تنازلتُ عن كبريائي منذُ البدايةِ في سبيلِ الهدفِ المرسومِ الَّذي أسعى إليه، لقد استوعبتُ بعضَ الأمورِ والمفاهيمِ الأساسيةِ في الحياة. مفتاح الأشياءِ الصَّعبةِ والغامضةِ أن تقبلَ بأيِّ دورٍ بسيطٍ حتَّى ترتقيَ الدَّرجاتِ العُليا بِمرورِ الوقتِ، ولكنْ يجب ألَّا ننسى الرَّغبة، والدَّافعيَّةَ، والمُثابرةَ والجهدَ المتواصلَ، ونضعَ بعدَها الهدفَ الأخيرَ نُصبَ أعيننا، ونواصلَ الطريقَ إليه مهما كانَ شاقًّا أو مُتعبًا، ثمَّ يأتي من بعده تحقيقُ الطُّموحِ المنشودِ بنهاية المشوارِ.

فترةُ صمتٍ.

بعدَ مدَّةٍ قصيرةٍ تعرَّفتُ على جميعِ أعضاءِ فرقةِ الأغاني الشَّعبيَّةِ، وتوثَّقتِ العلاقةُ فيما بيننا، ممَّا أتاحَ أمامي مجالًا واسعًا، وهي فرصةُ التَّعلُّمِ على العزفِ خلالَ مدَّةٍ قصيرةٍ جدًّا؛ فتمَّ ترفيعي بالفرقةِ من عضوِ الخدمةِ إلى طبَّالِ الفرقةِ ومُنظم الإيقاعِ، ومع تقدُّمِ الأيام انتهى بي الأمرُ إلى عازفٍ على إحدى الآلاتِ الموسيقيَّةِ، ثُمَّ استلمتُ قيادةَ الفرقةِ، وأصبحتُ أُغنِّي في أكبرِ الحفلاتِ والأعراسِ الشَّعبيَّةِ الَّتي تُحييها الفرقةُ.

توقَّفَ عَنِ الحديثِ.

سألَ التَّاجرُ:

-أليس هذا أسلوبًا ملتويًا للوصولِ إلى غايتكَ؟

أجابَ الفنَّانُ:

-لا أفهمكَ. كيفَ؟

– لقد حاولتَ التَّخطيطَ قبل أن تلتحقَ بالفرقةِ، وأخذتَ دورًا وضيعًا من أجلِ إزاحةِ قائدِ الفرقةِ.

– كانت غايتي شريفةً.

– غايتُك أن تستلمَ الفرقةَ بأكملِها، وتُصبحَ في فترةٍ قصيرةٍ المُغني الوحيدَ.

–لقد ثابرتُ بالعملِ، حتَّى وصلتُ إلى ما وصلتُ إليهِ بالنِّهايةِ.

–ولكن لم تُبيِّن لهم منذُ بدايةِ الالتحاقِ أنَّكَ جئتَ ساعيًا لاستلامِ الفرقةِ الشَّعبيَّةِ، وتسلبَها من قائدِها الأساسيِّ.

– لا يُهمني ذلك.

تدخَّلَ الكاتب، فقالَ:

–أرى صديقنا الفنَّانَ على حقٍّ.

وتابعَ الكاتبُ:

-عِصاميٌّ بغيرِ شكٍّ.

سألَ التَّاجرُ:

-كيفَ؟

- يعني أنَّه يعتمد على نفسِهِ بالتَّكوينِ.

سأحكي لكمُ الجزءَ الأهمَّ من حياتي كفنَّانٍ، لقد تعرَّضتُ لحادثِ تحرُّشٍ على يدِ امرأةٍ كادَ يقضي على حياتي ومستقبلي معًا. وبعدَ أن نفذتُ منها بِقُدرةِ القادرِ من ذلك المأزقِ الَّذي وقعتُ فيه، تركتُ الفنَّ والحفلاتِ الغنائيَّةَ جراءَ ذلك الحادثِ الأليمِ. كانَ رعُبًا حقيقيًّا كادَ يفقدني الرُّشدَ والصَّوابَ أيضًا.

القصَّةُ بدأت في أحد الأيام؛ إذ كُنَّا نُحيي حفلةَ عرسٍ بأحدِ الأحياءِ في مدينةِ القامشلي وبنظري لو كان اسمها (مدينة الجليد) لكانَ أفضل لها. قد أكونُ اخترتُ لها أفضلَ تسميةٍ على الإطلاقِ ألا وهي مدينةُ الجليدِ السَّاكنةِ، لأنَّها تفتقرُ إلى أدنى عُنصرٍ من عناصرِ النُّموِّ، لا ينبتُ في أرضِها شيءٌ مهمٌّ، لا يوجدُ

بالمدينةِ غابةٌ واحدةٌ، ولا بحيرةٌ اصطناعيَّةٌ واحدةٌ، ولا مطعمٌ يحملُ طابعًا عالميًّا بين جنباتهِ، ولا يوجدُ فيها برجٌ واحدٌ. مع العلم أنهُ كانَ في المنطقةِ منذُ أكثر من ألفي عام أولُ برجٍ بالعالم وهو برجُ بابلَ العظيمُ، ولا يوجد فيها ما يميِّزُها بمجال الصِّناعاتِ، ولا جامعةٌ مشهورةٌ على مستوى العالمِ، ولا تمتلكُ شيئًا اسمهُ متحفٌ، ولا حركةٌ ثقافيَّةٌ، ولا إذاعةٌ، ولا صحافةٌ مُميزةٌ. أراضيها شاسعةٌ وخصبةٌ لا تستخدمُ إلَّا لزراعةِ القمحِ والشَّعيرِ، حتَّى على مستوى التَّنظيمِ والتَّخطيطِ العمرانيِّ، تجدُ أنَّ مدينةَ الجليدِ غارقةٌ حتَّى أُذنيها في فوضًى وعشوائيةٍ مُفرطةٍ، كُلُّ ما فيها من حركةٍ تدور حولَ نفسِها بحلقةِ مفرغةٍ وجوفاءَ، وكلُّ تلكَ الأشياءِ الَّتي ذكرناها لا تتحقَّقُ إلا بالتَّقدمِ الَّذي لا يتحقَّقُ إلا بشيءٍ فقط وهي الحرِّيَّةُ الَّتي تحتاج إلى وسائلَ كالمالِ والقوَّةِ والعلمِ والصَّحَّةِ والسُّرعةِ في العملِ فيتحقَّقُ التَّقدُّم المنشودُ ويستفيدُ منها البلدُ والنَّاسُ معًا من أجلِ مستقبلٍ باهرٍ ومشرقٍ للأجيالِ القادمةِ.

لاحظتُ وأنا أُغنِّي في ذلك النَّادي المُقام فيهِ حفلةُ العرسِ حركةً غيرَ طبيعيَّةٍ من امرأةٍ بالعشرين من عمرِها، ذاتِ جمالٍ خلابٍ، تأسرُ القلوبَ العاشقةَ مِنَ النَّظرةِ الأولى. كانت رشيقةَ القوامِ، أنيقةَ الملبسِ لأبعدِ الحدودِ. يمكنني أن أقولَ بلا أدنى شكٍّ، إذا ما أُطفئت أضواءُ النَّادي كُلُّها، فإنَّ نورَ وجهِها البهيِّ الأبيضِ المُشرَبِ بالأحمرِ القانئ كانَ كافيًا لإضاءةِ كُلِّ الموجوداتِ بصالةِ النَّادي، وكنتُ أغنِّي وسطَ الحفلة. وما أن قابلتني وجهًا لوجهٍ، فنظرتْ إليَّ بوجهها الجميلِ، وعضَّتْ على شفتيها كحبتي كرزٍ ناضجتين، ولم تكسر نظرة عينيها الَّتي علقت بعيني حينها، بالرَّغم من أنَّني أسدلتُ جفوني. وازداد خفقانُ قلبي بتسارعٍ مُتصاعدٍ، وتوقَّفتُ عن الغناءِ. وأعطيتُ المجالَ لإفساحِ الطَّريقِ أمامَ تواصلِ العزفِ، لكي أداري قليلًا من شعورِ الهيجان الَّذي تملَّكني. حاولتُ جاهدًا أن أُكذِّبَ نفسي بشأن تلك العضةِ الآسرةِ، وبرَّرتُ ذلكَ الموقفَ بأنني شربتُ كأسًا من النَّبيذِ المرِّ قبل دخولي إلى الصَّالةِ، فيمكن أن يكونَ تأثيره تخيليًّا خلفَ ذلك

الانطباعِ لحركة شفاهِ تلك المرأة لديَ. ومن بعد عدم اليقين الأكيدِ، بدأتُ مواصلة الغناءِ، حتَّى وصلت المرأةُ الحسناءُ إلى نفس مكانها السَّابقِ، ولكنها غيرت أسلوبها إلى إيماءاتٍ أكثرَ وضوحًا. كانت هذه المرة غمزةً فضحتْ أمرَها. لقد صدق حدسي غيرِ المؤكَّدِ أخيرًا، نعم إنَّها ترغبُ بإقامةِ علاقةٍ معي، تحاولُ جري إلى شِباك حُبِّها، وبمجرَّدِ التَّعلُّقِ أكونُ فريسة سهلةً بيدها، ولكنَّني أعرفُ حدودي بالحفلات جيدًا. أقلُّ تصرُّفٍ غلط يكونُ محسوبًا عليَّ، لذا الحرصُ واجبٌ من هذه النَّاحيةِ. يجب ألا ألفتَ الانتباه إليَّ بشأن نساءِ الحفلةِ. المرأةُ شيطانةٌ وليس ملاكًا كما يقولُ البعضُ، فكلُّ العيونُ مُسلَّطةٌ نحوي تُراقبُني خلسةً. وأنا أؤدي الأغاني على الأنغامِ الرَّائعةِ، كان هدفي الرِّزقُ مِن وراءِ المهنةِ، وهنا ليس المكان المناسبُ الَّذي اصطادُ فيه النِّساءَ. كنتُ أعدُّه مكانًا مقدَّسًا من أجلِ العملِ فقط، لا شيءَ غير ذلك على الإطلاقِ؛ لذا يجب عليَّ الحرصُ والحذرُ من هذه النَّاحيةِ، ولكن الشَّيطانةَ الصَّغيرةَ ذات الجمالِ الآسرِ، لم تتركني وشأني، وبدأت

العملَ بمسلسلٍ واسعِ النِّطاقِ من الإشاراتِ والغمزاتِ المتواصلةِ على مدى أكثرِ من ساعتين مُتتاليتين، ولكنْ حصلَ شيءٌ لم يكن بالحسبان قطُّ. لم أكُن أُصدق ذلك أبدًا، عندما جاءت إليَّ وأنا واقفٌ على المنصَّةِ، بحيث أرادت أن أتصوَّرَ معها، وعندما أخذنا صورة معًا وهي واقفة بجانبي. وضعت قُصاصةً من الورقِ في يدي، وأكَّدت بهمسٍ:

-اتَّصلْ على هذا الرَّقم.

ثُمَّ نزلت بقامتها الممشوقةِ درجات مسرحِ الفرقةِ، واختفت بين جموع المُحتفلين، ولكنني لم ألقِ بالورقة على الأرض، بل دسستُها بجيب بنطلوني، وتابعتُ الحفلةَ ولم أرَها من بعد ذلك، فتوقَّعت أنَّها كانت من المدعوين، ولم تكُن من أهل العريس، لذلك رحلت باكرًا.

توقَّف عَنِ الحديثِ.

فقالَ الفنَّانُ:

-هل من سؤالٍ؟

سألَ التَّاجرُ:

-هل كانت عزبةً؟

-لا.

-كانت متزوجة إذًا.

-بالطَّبعِ كانت متزوجةُ، رأيتُ معها الأولاد.

-ألا يمكنُ أن يكونوا أولادَ أقربائها.

- جائزٌ.

-لسنا متأكدينَ إن كانت عزبةً أم مُتزوجةً.

- أنت على حقٍّ.

تدخَّلَ الكاتبُ:

-يا رَجلُ ألم تُلاحظ أنَّ صديقنا لَمَّا يُكمل قصَّتَهُ. بدليل أنَّ الرَّقمَ ما زالَ بجيبِهِ، ولم يتَّصل بها، أو يتأكَّدَ أكانت عزبةً أم متزوجةً.

أجابَ التَّاجرُ:

-أنا آسف حقًا؛ لأنَّني سبقتُ الحدثِ.

وتابع التَّاجرُ:

-كنتُ أتمنَّى من صديقِنا الفنَّان العزبِ ألَّا يُفرِّط بذلك الجمالِ الآسرِ ويفرَّ منه.

في مساءِ اليوم الثَّاني بعد انتهاء الحفلةِ، تمَّ الاتصال فيما بيننا، ثُمَّ أعقبها عدة لقاءات بعدها، فتوثَّقتِ العلاقة غيرُ الشَّرعيَّةِ مع مرورِ الأيام. هناك أمران أساسيانِ في تقويةِ أيَّةِ علاقةٍ مهما كان نوعها هي الاتصالات المستمرةُ واللِّقاءات المتواصلةُ، تكونُ كافيةٍ لإنضاجِ أضعفِ علاقةٍ بين الطَّرفينِ، والمرأةُ برأيي مثلُ قمةِ جبلٍ عالٍ في البدايةِ، حيثُ يصعبُ الوصولُ إليها، وإذا لم تنجح في المرَّةِ

الأولى بالوصولِ إليها، فعليكَ أن تُحاولَ مُجَدَّدًا ولِمراتٍ عدَّةٍ مُتتاليات، حتَّى تُتاحَ لك فعل بلوغ تلك الذَّروةِ العاليةَ بِكلِّ سهولةٍ.

كانت امرأةً مُتزوجةً ولها ولدانِ صغيرانِ، وكان زوجُها يعملُ موظَّفًا بإحدى دوائر تحديد المساحات الزِّراعيَّةِ المُخصَّصة لزراعةِ القُطنِ. وكانَ يُحبُّها بجنونٍ، ولكنْ كما يقولونُ القلبُ وما يهوى، لا أنكرُ أنَّني أيضًا وقعتُ في حبِّها، وضمَّتني معها بمغارة قلبها النَّابض بالحُبِّ وعلى بابِها الأحمرِ غزلتْ شبكة عشقها العنكبوتيِّ بجانب عشِّ لحمامٍ بريٍّ وقالت لي:

-لا تحزن يا حبيبي إنَّ الله معنا.

أصبحتُ صوفيًّا أعبدُ فتنةَ ذلكَ الجمالِ الباهرِ، الَّذي أبهرني في أوَّلِ ساعةٍ عندما رأيتها بحفلةِ العرسِ، هذه كلُّها أشياءُ عادية تحصلُ مع آلافٍ من النَّاسِ، ولكنَّ الشَّيء غيرَ الطبيعيِّ كادَ يقضي على مستقبلي يبدأُ من هنا.

كانت المرأةُ تقترح عليَّ أن نهربَ معًا خارجَ البلدِ. ومرَّةً أُخرى تقولُ إنَّها ستطلبُ الطَّلاقَ من زوجها، وستتركُ أولادَها من أجل أنْ يتوَّجَ حُبُّنا بالزَّواجِ. سأعترفُ الآنَ بعدما تعمَّقت صلةُ الحبِّ والودِّ، أصبحتُ أكثرَ الوقتِ واجمًا، لأنَّني صراحةً كنتُ أخافُ كثيرًا بأن يكشفُنا زوجُها بأيَّةِ لحظةٍ مِنَ اللَّحظاتِ. فتكونَ حياتها في خطرٍ؛ فأكونَ أنا السَّبب بذلك، فحاولتُ درأً للخطرِ أنْ أقطع علاقتي بها، ولكنَّها تمادت إلى حدٍّ لا يُوصف. مُهددةً إياي بفضح أمري أمامَ الجميعِ، وإذا ما شعرتْ بشكلٍ نهائي أنَّني قد تركتُها نهائيًّا، قد تلجأ العاشقةُ المجنونةُ إلى الانتحارِ، وأنَّها ستكتب رسالةً باسمي، وستُسلمها إلى أهلِ زوجِها.

علَّقَ الكاتبُ:

-الانسحابُ بهذهِ الأوقاتِ الحرجةِ في ظنِّي أصبحَ صعبًا للغايةِ. ألا ترون معي تلكَ الصُّعوبةِ؟

أجابَ الفنَّانُ:

-بل قُل حتَّى أصعبَ مِنَ الصَّعبِ.

فقالَ التَّاجرُ:

-بالبدايةِ كانَ لهوًا ولعبًا.

- هذا ما كانَ.

- كانت فتاةً لعوبًا.

- نعم كانت لعوبًا.

وسألَ التَّاجرُ:

- ولماذا لم تضعْ حدًّا؟

وتابعَ التَّاجرُ:

- عندما اكتشفتَ أنَّها امرأةٌ متزوِّجةٌ ولها ولدانِ صغيرانِ.

لماذا لم تتركها؟

أجابَ الفنَّانُ:

-كان باعتقادي أنني قادرٌ، أن أضعَ نهايةً لتلكَ العلاقةِ غيرِ الشرعيَّةِ في أيَّةِ دقيقة إذا أردتُ أنا ذلك، ولكنْ معَ مرورِ الأيامِ، وازديادِ العشقِ والحميميَّةِ بيننا عرفتُ أنَّني سأغرقُ في بحرٍ مِنَ المشاكلِ لا قاعَ له، ولا يمكنني أن أخلص نفسي منها بسهولةٍ.

سألَ التَّاجرُ:

-وما أنت إلا ضحيةُ ابتزازٍ لتلكَ المرأةِ المجنونةِ؟

- هذا شيء مُحقَّقٌ، لا يمكنني أن أنكرَهُ.

فقالَ التَّاجرُ:

-صحيحٌ أنَّ هناك الكثيرَ مِنَ النَّاسِ يمرُّونَ بنفسِ الحالةِ الَّتي تمرُّ بها أنت الآن، ولكنهم يتزوجون بعدَ الطَّلاقِ، وكأنَّ شيئًا لم يحصلْ.

أجابَ الفنَّانُ:

-كانت لديَّ مشكلةٌ.

-ما مشكلتُكَ؟

-أمِّي.

-ماذا بها؟

- لن توافقَ بأنْ تزوِّجَ ابنَها بواحدةٍ مُطلَّقةٍ أبدًا.

-أليست لكَ شخصيَّةٌ مستقلَّةٌ.

-لا يمكنني أن أُغضب أُمِّي لأنَّها تعبت وشقيت من أجلنا قبلَ وبعدَ وفاةِ أبي. ولم تتزوج بالرَّغم أنها كانت ببداياتِ عمرِها، وكانت ذات هيئةٍ جميلةٍ وأخلاقٍ عاليةٍ، يرغبُ فيها الكثيرون من الرِّجالِ الَّذين يركضون وراءَ الجمالِ. أمَّا أنا فقد وقعت في فخِّ الجمال من دونِ الأخلاقِ وهذه كانت حقًّا هي المُصيبة الحقيقية، وكما يقول المثل: إنَّ الجمالَ جمالُ الرُّوحِ وليس جمالَ الجسدِ، الَّذي يذبلُ مع تقادمِ الزَّمنِ.

سألَ التَّاجرُ مُتلهفًا:

-لم أرَ خطرَ المرأةِ عليك حتَّى الآن؟

-هاك الخطرَ.

لقد اتَّفقت المرأةُ الَّتي عشقتني بجنونٍ مع قاتلٍ مأجورٍ. كان صاحب سيارة أجرةٍ. وكان الاتِّفاقُ بينهما أن تتخلَّصَ من زوجِها وتُزيحهُ عن طريقِنا بأيَّةِ طريقة، وذلك مُقابل مبلغ ماليٍّ كبيرٍ تُقدِّمُهُ إلى المنفِّذ. والشيء الَّذي سهَّلَ تلك المهمةَ الموكلةَ إلى القاتل أنَّ زوجَ المرأةِ كانَ موظَّفًا بدائرةِ المساحةِ. وكانَ الموظَّفَ الوحيدَ الَّذي يخرجُ مَعَ المراجعينَ خارجَ الدَّائرةِ، فاستغلَّ القاتلُ فرصةَ خروجِ الموظَّفِ أثناءَ دوامِهِ بِدائرة المساحة، فطلبَ القاتلُ من الضَّحيةِ أن يذهبَ معَهُ لتحديدِ مساحةِ الأرضِ الَّتي سيزرعها من أجلِ محصولِ القطنِ لهذا الموسمِ، وما أن رافق الموظَّفُ الحكوميُّ القاتلَ المأجورَ، حتَّى وصلَ به إلى منطقةٍ نائيةٍ ظنًا منه أنَّه لا وجودَ لإنسٍ فيه ولا جانٍ. نزل الزَّوجُ مِنَ السيارةِ، فأخرجَ المجرمُ مُسدسَهُ وأطلقَ الرَّصاصَ على الموظَّفِ، ثمَّ غادرَ المكانَ دونَ أن يتأَّكد أنَّهُ قد فارقَ الحياةَ، ظنًا منه أنَّه قد انتهى من مهمته الموكلةِ إليه، وهي إنهاء حياة موظِّف تحديدِ مساحاتِ الأراضي

الزِّراعيَّةِ، وجاء القاتلُ المأجورُ إلى المرأة فقبضَ ثمنَ عمليةِ القتلِ، بعد التأكيد التَّامِّ أنَّ زوجها الموظَّفَ قد فارقَ الحياةِ إلى الأبدِ. وفي حقيقة الأمرِ لم يمضِ وقت طويلٌ على قتلِ الضَّحيَّةِ، حتَّى رآه بعض من المارة. فتوقفوا عند جثته ثمَّ مالوا عليه وجسُّوا نبضهُ فوجدوه أنَّه لم يُفارقِ الحياة بعد، وقاموا بسرعة بإسعافهُ إلى أقرب مشفى من مكان الحادثِ، وشاءت الأقدارُ أن تُكتَبَ حياةٌ جديدةٌ لهذا الرَّجلِ المغدورِ، والَّذي تآمرت عليه زوجته رمز الشَّرِّ بإزاحتِهِ عن الوجودِ، لأجل عشيق بريء لم يكُن مشتركًا بتلك الجريمةِ البشعةِ، ولم يكن على علمٍ بأيِّ تفصيلٍ من تفاصيلِ تنفيذِها على أرضِ الواقعِ، فظل زوجُ المرأةِ الشَّيطانةِ بِغُرفةِ العنايةِ المشدَّدةِ أكثر من شهرٍ، وهو غائبٌ عن وعيهِ، وكان وضعهُ الصِّحِّيُّ غيرُ مستقرٍ. حيثُ يُصارع الموتَ مع الحياةِ، فتأجَّلت مهمةُ رجالِ التحقيق معه حتَّى استقرار وضعِهِ، وبعدَ شهرٍ تحديدًا جاءَ المُحقِّقُ، وأخذَ إفادتَهُ فتحدَّثَ هذا، وأدلى بشهادتِه كاملةً عن شكلِ القاتلِ ونوعية السيارةِ؛ فعرفته الشُّرطة بسرعةٍ حيث كانت

لَهُ سوابقُ قبل ذلك. وأكملَ الزَّوجُ بما جرى معه من أحداث حتَّى آخر لحظةٍ عندما أغمي عليه، وعلى تلكَ الأقوالِ تمَّ التَّعرُّفُ على مُنفِّذ العمليةِ، قبضَت عليه عناصرُ المداهمةِ النَّشطين، وحقَّقوا معَهُ فكشفَ عن الاتِّفاقِ الَّذي جرى بينه وبين زوجةِ الموظَّف مُدبرة الخطَّة ومُمولة العمليَّةِ، والَّتي ألقي القبضُ عليها أيضًا، ولم تُشرِ التَّحقيقات عليَّ لا من قريبٍ ولا من بعيدٍ.

علَّقَ الكاتبُ:

-لقد نجوت، وانتهتِ الأمورُ على خيرٍ.

سألَ التَّاجرُ:

-كيفَ بأيةِ طريقةٍ؟

أجابَ الكاتبُ:

- اكتشِفَ القاتلُ المنفِّذُ، الَّذي كشفَ بدورِهِ عن مُدبِّرِ العمليَّةِ.

– وفي حالِ عدمِ الكشفِ عن هويةِ القاتلِ. ما الَّذي كان سيحصلُ لصاحبِنا الفنَّانِ العاشقِ؟

– بظهورِ المجرمِ ظهرت مُخططةُ العمليَّةِ، وهي زوجةُ الرَّجلِ الضَّحيةِ، وبهذا كانَ الاعترافُ دليلَ إدانةٍ واضحًا للزَّوجةِ المتورِّطةِ، الَّتي أمرت القاتلَ المأجورَ صاحبَ سيارةِ الأجرةِ، ودفعتْ لَهُ المالَ مِن أجلِ تصفيةِ زوجِها، والفوزِ بعشيقِها، ولكنَّ نجاةَ الموظَّفِ مِنَ الموتِ، وإفادتُهُ بشأنِ القاتلِ كشفَ الغطاءَ عن المستورِ وثبتتْ إدانةُ الزَّوجةِ ومسؤوليتها الكاملةُ عن تلك الجريمةِ.

–وإذا ما أنكرت الزَّوجة المتآمرةُ معرفتها بالقاتل، وأنَّه يدَّعي الكذبَ والافتراءَ عليها.

أوضحَ الكاتبُ للتَّاجرِ:

–يا عزيزي. القاتلُ ليسَ غبيًّا لهذه الدَّرجةِ، لأنَّهُ قد سجَّلَ تسجيلًا صوتيًّا بالاتِّفاق الَّذي جرى بشأنِ عمليةِ القتلِ العمدِ.

-تقصدُ أنَّ الزَّوجةَ المُتآمرةَ كانت على علمٍ بذلكَ التَّسجيلِ الصَّوتيِّ، وهو دليلُ إدانتها المؤكَّدِ.

- بالضَّبط. كانت متأكِّدةً من وجود دليلٍ دامغٍ يُدينها.

-أفهمُ من ذلكَ أنَّها سكتت منذُ البدايةِ بعدمِ الدِّفاعِ عن نفسِها أثناءَ التَّحقيقِ معها.

-نعم.

سألَ التَّاجرُ:

-وفي حالِ عدمِ كشفِ المجرمِ. ما الَّذي كان سيحصلُ؟

أجابَ الكاتبُ:

- سيتمُّ التَّحقيقُ معَ الزَّوجةِ، فهي الأقربُ إلى الزَّوجِ، والَّتي تحومُ من حولها الشُّكوكُ بالدَّرجةِ الأولى، فالمحقِّقون بارعون في البحثِ والتَّمحيصِ في حياةِ الزَّوجةِ وعلاقاتِها الخاصَّةِ مع الآخرين ضمنَ أقربِ دائرةٍ لها؛ حينها يتمُّ النَّبشُ بعلاقاتها وخلافاتِها معَ زوجِها. وعادةً ما يقوم المحقِّقون بتوسيعِ دائرةِ

تحقيقاتهم لتشملَ الأصدقاءَ والجيرانَ المُقربين إلى الزَّوجةِ، عسى أن يتوصلوا إلى طرفٍ خفيٍّ، يؤدِّي إلى كشفِ تلك العلاقةِ السِّرِّيَّةِ بينَ المرأةِ الحسناءِ وصديقنا الفنَّان، وبهذا كانَ مِنَ الممكنِ أن تزدادَ نسبة الخطرِ على حياةِ صديقنا الَّذي يسردُ قصَّتَهُ لنا الآنَ، ومستقبلِهِ، ولكنَّ الأمورَ لم تصلْ إلى هذا الحدِّ.

-إذًا من حظِّ صديقنا الفنَّانِ كشفُ الجُناةِ بهذهِ السُّرعةِ.

-أنت مُحقٌّ بذلك.

صمتٌ وهدوءٌ خيَّما على الأجواءِ. صوتُ طلقةٍ، تبِعها وميضٌ حادٌّ، لحقها ارتطامُ جسدِ شخصٍ سقطَ على الأرضِ، ليحلَّ على الفورِ ظلامٌ على المكانِ. كان نتيجةً حتميةً لنصِّ اتِّفاقٍ سابقٍ جرى بين أربعة أصدقاءٍ قرَّروا الاجتماع هنا كلَّ رأسِ شهرٍ. والَّذي ينهي الحديثَ عن حياتِهِ السَّابقةِ، وفورَ انتهائِه تُوجَّهُ طلقةٌ إلى رأسِهِ لينهي بها سردَ قصَّتِهِ، ثم يبدأُ الاجتماع الآخرُ بالشَّهرِ الَّذي يليهِ.

الفصلُ الرَّابعُ

عبد الغفور عيد

جاءَ موعدُ الاجتماعِ الثَّالثِ كالمعتادِ في المكانِ السَّابقِ نفسِهِ، والَّذي أُقيمَ بكافيتريا التَّصفيةِ في الثَّالثِ والعشرينَ من شهرِ مارس (آذار)، وهذه المرَّةَ بحضورِ شخصينِ فقط هُما التَّاجرُ الَّذي يُدعى عبد الغفور عيد، الَّذي كان يقومُ بطرحِ العديدِ من الأسئلة على كُلٍّ مِنَ العاملِ والفنَّانِ فيما مضى، ولكن هذه الجلسة بالذَّاتِ سيتحدثُ التَّاجِرُ عن حياتهِ، وما تعلَّمَهُ من أصولِ مهنة تجارةِ الأواني المنزليَّةِ ومبادئها من البدايةِ وحتَّى النِّهايةِ. بالطَّبع مُتجاوزًا أحداث مراحلِ حياتهِ الأوَّليَّةِ سابقًا؛ فالشَّخصيَّةُ الَّتي نحنُ بصددها قائمةٌ في بنائها على أنقاضِ شخصيَّةِ الفنَّانِ، والَّتي عرفنا عنها كلَّ شيءٍ. وقد أفلَ نجمُها وخبا أمامَ صعودِ نجمٍ لامعٍ مكانَها مُتمثلةً بشخصيَّةِ التَّاجرِ.

فقالَ الكاتبُ:

-أرى أنَّ شهيَّتَكَ مفتوحةٌ على حديثٍ مُطوَّلٍ، وجَعبتُكَ مليئةٌ بأحداثٍ كثيرةٍ.

-لقد أصبْتَ كبدَ الحقيقةِ.

سألَ الكاتبُ:

-هل نبدأ جلستَنا بأكلِ البيتزا؟ أم نبدؤها بالحديثِ؟

-الأفضلُ أن نفتتحَها بالحديثِ، لأنَّني سأسردُ مِنَ الألفِ إلى الياءِ، وكيف تعلَّمتُ أصولَ التِّجارةِ ومبادئَها مِنَ الصِّفرِ.

فقالَ الكاتبُ المُصغي إليهِ:

-إذًا على بركةِ الله، يا صديقي التَّاجرَ العزيزَ.

ردَّ التَّاجرُ على الكاتبِ بنفس المودةِ:

-على بركةِ الله، يا صديقي الكاتبَ اللَّطيفَ.

أثناءَ ذلك جاءتهم فتاةُ الخدمةِ الجميلةُ، تتهادى في مشيتها بينَ الطَّاولات كمشيةِ طائرِ القطا الجميلِ، وبيديها الرَّقيقتين قائمةٌ

بأنواعِ البيتزا المُختلفةِ، ثمَّ اتَّجهت نحوهما مُباشرةً، لكنها عادت أدراجَها خائبةً، ولم يطلبِ العبدان منها غيرَ كأسينِ مِنَ الكوكتيلِ الطَّازجِ بجو ذلك الاجتماع الثَّنائيِّ السَّاخنِ.

فقالَ التَّاجِرُ لِمُدير الحوارِ:

-تعرفُ لماذا طلبتُ الكوكتيلَ أوَّلًا، ولم أطلبِ الطَّعامَ؟

ردَّ عليهِ الكاتبُ:

-لأنَّك ستسهبُ في الحديثِ.

-بالضَّبطِ.

فقالَ التَّاجرُ:

- ما عليك إلَّا أن تُنصتَ؟

-أجل.

لكلِّ شيءٍ في هذه الحياةِ سببٌ ونتيجةٌ. كانَ السَّببُ هو أخي الأصغرُ منِّي، والَّذي كان يعملُ بتجارةِ الأواني المنزليَّةِ.

والنَّتيجةُ أنَّني عملتُ معه بالمهنة نفسها، وتعلَّمتُ منه أصولَ التِّجارةِ ومبادئها.

سألَ الكاتبُ:

-من أينَ كانتِ البدايةُ؟

أجابَ التَّاجرُ:

-سؤالٌ عظيمٌ جدًا.

مدينة القامشلي.

2007

لقد بدأتُ تعلُّمَ فنونِ التِّجارةِ مِنَ الأسواقِ الشَّعبيَّةِ، وبهذه الأسواقِ كُنَّا نعرض بضائِعَنا على الأرض، وكانت أغلبُ الأصنافِ زُجاجيات وبعضًا من أنواعِ البلاستيكِ النِّظاميِّ والأشياءِ النَّاعمةِ الصَّغيرةِ كالسَّكاكينِ والملاعقِ والشُّوكِ والقائمة تطولُ بذلكَ. فتصلُ تلكَ الأقلامُ إلى أكثرِ من خمسينَ نوعًا أحيانًا، ترانا في السَّاعةِ التَّاسعةِ صباحًا ننتهي من آخرِ لمساتِ تصفيةِ تلك

الأصنافِ، وبعدَ التَّاسعةِ حيثُ يبدأ الزَّبائنُ بالتَّوافدِ إلينا أنا وأخي الأصغرِ منِّي الَّذي كانَ يعملُ قبلي بهذهِ التِّجارة. فكانَ هو البائعُ الَّذي يتقدَّمُ بسطةَ البضائعِ، وكانَ يساومُ الزَّبائنَ وأكثرُهم كانوا منَ النِّساء اللواتي يعشقنَ بشكلٍ جنونيٍّ تلكَ الأدواتِ المنزليَّةَ بِمختلفِ أنواعها الرَّائعةِ، وكانت أغلبُ زبائننا هُنَّ ربَّاتُ المنزلِ، حيثُ يقضينَ أكثرَ أوقاتهنَّ في المطابخِ الحديثةِ، ويقمنَ بتجهيزِ الطَّعامِ الشَّهيِّ لعائلاتهنَّ.

وفي أوَّل يومِ عملٍ لي في السُّوقِ من هذا العام، كنتُ أنظرُ كالمدهوشِ إلى أخي وهو يتفاوضُ معَ الزَّبائنِ الَّذين كانوا يتردَّدونَ على بسطةِ بضائعِنا البلوريَّةِ وكلُّ ذلكَ من أجلِ عمليَّةِ البيعِ والشِّراءِ، فيعطي السِّعر لهذا وذاك، ثمَّ يبيعُ أخيرًا، كنتُ لا أُصدِّقُ ما تراه عيناي أو ما تسمعهُ أُذُناي.

فأقولُ لنفسي:

-يا له من بائعٍ بارعٍ.

هكذا قضيتُ يومي الأوَّل وأنا أمدُّ أخي بالأكياسِ الفارغةِ ليملأها بِكاساتٍ زُجاجيَّةٍ، وبِمختلفِ أنواعِ الأصنافِ الأُخرى.

دعني أكونُ أكثرَ صراحةً، لقد أمضيتُ أسبوعًا بِأكمله على هذه الحالةِ أخدمُ فقط على البسطةِ، ثمَّ أحملُ مع انتهاءِ السُّوقِ الصَّناديقَ الممتلئةَ بالبضاعةِ، ثُمَّ أقومُ بوضعها في سيارةِ الشَّحنِ. ولكنَّني لم أتحدَّث في البدايةِ عن الأماكنِ الَّتي كانت تُقامُ فيها الأسواقُ الشَّعبيَّةُ، وكانَ كلَّ يومٍ من أيامِ الأسبوعِ مُخصَّصًا لسوقٍ. في يومِ السَّبتِ كان السُّوقُ في مدينةِ عامودا، وفي يومِ الأحد كانَ السُّوقُ في مدينةِ القامشلي، وفي يومِ الاثنين في القحطانيَّةِ والثُّلاثاء والخميس والجمعة تُقام بالقامشلي. أمَّا عن بضاعة الأسواقِ الشَّعبيَّةِ فكانت تشملُ الموادَّ الغذائيَّةَ والمنظفاتِ، وجميعِ أنواعِ الفواكهِ والخضرواتِ، وكذلك اللَّوازمِ المكتبيَّةِ والألبسةِ الجاهزةِ ولفافاتِ الأقمشةِ الكبيرةِ، إضافةً إلى ألعابِ الأطفالِ والأحذيةِ المختلفةِ والخردواتِ المتنوِّعةِ. وكلهم كانوا يفرشون بضائعَهم على

الأرضِ، مستخدمينَ الخيمَ كمظلَّاتٍ لحمايةِ أنفسِهم مع بضاعتهم من أشعةِ الشَّمسِ الحارقةِ بالصَّيفِ ومن البردِ القارسِ بالشِّتاءِ، فبالنِّسبةِ إليَّ الأسواقُ الشَّعبيَّةُ هي ألف باء تعلُّمِ مبادئِ التِّجارةِ.

وقد أمضيتُ أسبوعي الثَّاني بِخطةٍ جديدةٍ، ألا وهي تعلُّمُ أسعارِ جميعِ أصنافِ البضاعةِ الموجودةِ معنا بسيارةِ الشَّحنِ المُغلقةِ. كنتُ أحفظُ سعرَ هذه القطعةِ وأتبعها بحفظِ أسماءِ الأشياءِ الأخرى، وعندما كانَ الزَّبونُ يسألني عن سعرِها كنتُ أنسى ما حفظْتُ من أسعار، حيثُ أقِفُ جامدًا بمكاني مثلَ لوح خشبيٍّ، عندها أتأمَّلُ أخي الأصغرَ منِّي، وهو يتعاملُ مع الزَّبائنِ كأنَّهُ طيرُ ببغاءٍ يعرفُ أربعين لُغةً؛ فألعنُ نفسي ألفَ مرَّةٍ على هذا الغباءِ الَّذي كان يلازمني وقتَها، ولا أنكرُ أنَّهُ كان يتملَّكني حزنٌ ويأسٌ لعدمِ معرفتي ببيعِ البضاعةِ، والتَّعامل معَ الزَّبونِ الَّذي يسألني عن السِّعرِ، وأقِفُ عاجزًا عن الرَّدِّ، فيضحكُ ساخرًا منِّي حينها، ولا أنكرُ أنَّني اتَّخذتُ من سُخرياتِ وضحكاتِ الزَّبائنِ حافزًا لأجتهدَ وأُثابرَ من أجل حفظِ الأسعارِ، والتَّعاملِ بسلاسةِ

مثلَ أخي الأصغرِ مع الزَّبائن، ففي نهاية وقتِ العملِ في كلِّ يومِ كنت أختلي بنفسي في غرفتي وأُواظِبُ على حفظِ فواتيرِ البضاعةِ المختلفةِ لأكثر من أربعِ ساعاتٍ متواصلةٍ باليومِ، ولكن لم ألحظِ التَّغيُّرَ إلَّا بعد مُضي ثلاثةِ أشهرٍ على تلك الحالة، وأخيرًا بعد الجهدِ المستمرِّ، حيثُ نطق أخيرًا الطِّفلُ الصَّغيرُ في داخلي بِأولى الكلماتِ الَّتي تُبهج والديهِ اللَّذين ينتظرانهِ أن يتكلَّمَ بفارغِ الصَّبرِ من أجلِ تعليمهِ، وأصبحتُ أُجيدُ عمليَّةَ البيعِ والشِّراءِ بِكُلِ يسرٍ وسهولةٍ. انتقلتُ من مرحلةِ السُّقوطِ والتَّعثُّرِ إلى مرحلةِ الوقوفِ على القدمينِ والمشي بِبطءٍ، ثمَّ تبعتْها مرحلةُ تقويةُ السِّيقانِ بتعلُّمِ أصولِ التِّجارةِ، وإطلاقِ تلك السِّيقانِ للرِّيحِ.

هل يكفي أنْ أقفَ عند حدِّ تعلُّمِ فنِّ البيعِ بالمفرَّقِ بطريقةٍ واحدةٍ! لا لن أرضى بذلكَ أبدًا، حتَّى أكونَ مُتميزًا يجبُ أنْ أتقنَ على الأقلِّ عدَّةَ طرقٍ أخرى. عليَّ أنْ أعرفَ مواصفاتِ ومميزاتِ جميعِ أنواع البضائع، ثمَّ أقوم بشرحِها للمشتري، واتَّبعتُ نظامَ تخفيضِ الأسعارِ لكسبِ المشتري بدلًا من ارتفاعِ الأسعارِ الَّذي

سيجعلُ الزَّبونَ يفرُّ دونَ رجعةٍ إلى البسطةِ الأرضيَّةِ. وإذا قامَ أحد المشترين بإعادة قطعةٍ من البضاعةِ بعدَ مدَّة من أخذِها. أو إنْ كانَ مُصمِّمًا على التبديلِ بدلتُ له على الفورِ دونَ مناقشةٍ معه إطلاقًا، وإن كانَ مُصرًّا على إ عادتها كنت أوافقُ، ثمَّ أردُّ له النُّقودَ، وابتسمُ في وجههِ مُرحِّبًا به بحفاوةٍ بالغةٍ، وحتَّى لحظة مُغادرتِهِ بسطةَ البضاعةِ. وبهذا الأسلوبِ الدِّبلوماسيِّ في التَّعاملِ كسبتُ مِئات الزَّبائنِ بِكلِّ مرَّة خلال فترةٍ وجيزةٍ من الزَّمنِ، فتزيدُ مبيعاتنا لكلِّ أسبوعٍ أكثرَ من الأسبوع السابق.

مع نهايةِ العام الأوَّل في عملنا بالأسواقِ الشَّعبيَّةِ أصبحنا الأوائلَ على مستوى السُّوقِ بالمبيعات المرتفعةِ والسُّمعةِ الطَّيِّبةِ، وأصبحنا نبيعُ أجودَ أنواعِ البضاعةِ الفاخرةِ والنَّفيسةِ. هكذا أمضينا عام 2007 بنجاحٍ منقطعِ النَّظيرِ على مستوى العملِ مقارنةً مع باقي البسطاتِ الأخرى، ولكن قبلَ أن أنتقلَ إلى العامِ الَّذي يليه سأذكرُ قصَّةً حدثت معنا بشأنِ سوقِ الثُّلاثاءِ الَّذي كانت يُقام بالحيِّ الغربيِّ بمدينةِ القامشلي. القصَّةُ جرت معنا

ببدايات نزولنا إلى الأسواقِ الشَّعبيَّةِ، ولكنَّها بالفعلِ تستحقُّ أن يُضرب بها المثلُ خاصَّةٌ بما فيها من إصرارٍ ومقاومةٍ تفوقُ جميعَ التَّوقعاتِ. أتمنَّى من يستمعُ إليها أن يفيدَ منها بحياتِهِ العمليَّةِ، سبحانَ اللهِ وفِّقنا ببدايةِ مشوارِنا التِّجاريِّ بجميعِ الأسواقِ، باستثناءِ سوقٍ واحدٍ وهو سوقُ الثُّلاثاءِ النَّحسُ، والَّذي ظلَّ عصيًّا في وجهنا؛ إذ لم تكنْ مبيعاتُنا في ذلكِ السُّوقِ جيِّدةً، وبنهاية الشَّهرِ الأوَّلِ اقترحَ أخي وشريكي أنْ نتركَ هذا السُّوقَ اللَّعينَ، ولكنَّني رفضتُ اقتراحَهُ جملةً وتفصيلًا. فعرفتُ في الحال أن اليأسَ قد بلغَ بهِ إلى حدِّ فقدانِ الأملِ في أن نُوفَّقَ ونسترزقَ من هذا السُّوقِ الشَّعبيِّ بالذَّات، ثمَّ أمضينا الشَّهرَ الثَّاني والثَّالث بهذا الشَّكلِ، بحيث نعرضَ البضاعةَ ونستمرُّ في العملِ بترتيبها لمدَّةِ ساعةٍ كاملةٍ، والنَّتيجةُ لا أحدَ يزورُنا أو يشتري شيئًا من عندنا. وصلَ أخي مرَّة أخرى إلى مرحلةِ الإحباطِ الكاملِ، وطلبَ منِّي أن نحسمَ أمرَنا وأنْ نقومَ بتغييرِ هذا السُّوقِ اللَّعينِ. بالطَّبعِ كان موقفي عدمَ الإصغاءِ إليهِ، ولم آخُذْ بمشورتهِ مُطلقًا وأكدَّتُ لَهُ

أنَّني واثقٌ منْ إحساسٍ قويٍّ كانَ ينتابني دائمًا، بأننا سننجحُ في ذلك السُّوقِ لو صمدنا وأصررنا أكثرَ. وبالفعل ببداية الشَّهرِ الرَّابعِ أخذ بعض الزَّبائن يشترونَ منَّا الواحد تلو الآخر، وقد أصبحنا فيما بعدُ الأوائلَ بسوق الثُّلاثاء الَّذي ظلَّ سدًّا منيعًا بوجهنا لفترةٍ طويلةٍ مِنَ الزَّمنِ. لقد حقَّقنا نجاحًا باهرًا في ذلكَ الوقتِ أو يمكن أن ينطبق المثلُ التَّالي علينا ما بعدَ الصَّبرِ إلَّا الفرجُ.

توقَّفَ عن الحديثِ.

علَّقَ الكاتب:

-كانت بدايةً موفَّقةً.

أجابَ التَّاجر:

-بالطَّبعِ كانت بدايةً موفَّقةً.

- لا يمكنني إلَّا أن أصفكَ بخزنةِ جهنَّمَ.

وتابعَ الكاتبُ:

-كلما أعطى الله تلكَ الخزنةَ وقودًا مِنَ الكافرينَ.

أجابَ التَّاجر:

-فتردُّ خزنةُ نارِ جهنمَ هل من مزيدٍ؟

وتابعَ التَّاجرُ:

-يجبُ أن أصلَ إلى الهدفِ الَّذي أضعُهُ بِمُخيلتي، مهما كانَ ذلك صعبًا.

ردَّ الكاتبُ:

-هذا واضحٌ جدًا.

ثمَّ تابعَ الكاتبُ بالتَّفصيلِ:

-لقد لاحظتُ عليكَ الذَّكاءَ التِّجاريَّ، فأنت تتصفُ بِنظرٍ ثاقبٍ، ويمكنني أن أضربَ لكَ مثلًا. أنت تُشبهُ السَّيارةَ الَّتي تسيرُ على الطَّريقِ في اللَّيلِ الحالكِ. لاحظْ معي إذا ما أشعلَ السَّائقُ زرَّ الضَّوءِ القريبِ، فلن يرى أمامَهُ سوى أمتارٍ قليلةٍ مِنَ الطَّريقِ

الَّذي يسيرُ عليهِ، وتكونُ سرعةُ سيارتِهِ محدودةً عندَها لأَنَّهُ لا تتبيَّنُ لَهُ عوائقُ الطَّريقِ، وإذا ما أشعلَ زرَّ الضَّوءِ البعيدِ فتراه تنكشفُ له الطَّريقُ إلى أبعدِ مسافةٍ يمكنهُ أن يرى من خلالها، وهنا يزيدُ من سرعةِ سيارتِهِ دونَ أن يخشى المطبَّاتِ والحفرِ الموجودةِ في الطَّريقِ أمامَهُ.

أجابَ التَّاجرُ:

-وصفٌ رائعٌ.

فقالَ الكاتبُ:

-أنا لا أُجاملُ.

وتابعَ أيضًا:

-هذا هو أنت يا صديقي التَّاجرَ. أنتَ تُبصرُ المستقبلَ، وأكبرُ دليلٍ على ذلكَ هو سوقُ الثُّلاثاءِ المنحوسِ، عندما قررت بحزمٍ ألا تخرج منه مهزومًا، وبصمودِك الَّذي لا يُقهرُ، ومقاومتُك الَّتي لا توصف انتصرْتَ على يأس أخيكَ الأصغرِ منكَ وشريكك

في البسطةِ، فحقَّقت بالنِّهايةِ نجاحًا يستحقُّ منا كلَّ الاحترامِ والتَّقديرِ.

أجابَ التَّاجرُ:

-إذًا أنا مُتبصِّرٌ.

- نعم. أنتَ كذلكَ.

(2008)

الأشياءُ لا تبقى ثابتةً كما هي. كُلُّ شيءٍ قابلٌ للتَّغيُّرِ، هذا هو قانونُ الطَّبيعةِ الأساسيُّ. وفي هذا العامِ بالتَّحديدِ قرَّرتُ أنْ استأجرَ محلًّا، وأنْ أضع فيه بعضًا من البضائعِ، بينما ظلَّ أخي الأصغرُ منِّي يذهبُ إلى الأسواقِ الشَّعبيَّةِ، لأنَّي وجدتُ بقاءنا معًا، نحنُ الاثنين، على موردِ رزقٍ واحدٍ خسارةً لنا. وعلى كلمةِ الرِّزقِ حصلت معنا قصَّةٌ بهذا الشَّأنِ. كانَ ذلكَ في سوق عامودا، فأوَّلُ ما بدأنا بالعملِ هناك كانت غلَّتُنا تَصلُ في ذلك اليومِ إلى أعلى مستوى، ولكنْ بعد مُضي مدَّةٍ مِنَ الزَّمنِ قلَّ مردودنا. سألني أخي:

-ألم تلاحظ أنَّنا لم نعدْ نكسب كما كنَّا في السَّابقِ. برأيك ما السَّببُ؟

-ألا تعرف.

-لا.

-هل أنت جادٌّ في ذلك.

-نعم.

-كُنَّا في بدايةِ عملنا بسطتين فقط تبيعانِ أصنافِ الأدواتِ المنزليَّةِ نفسها، هل أنت موافقٌ على ذلك؟

-بِكُلِّ تأكيدٍ.

-ومعَ مرورِ الوقتِ أصبحنا أكثرَ من عشرِ بسطاتٍ بالسُّوقِ ونبيعُ الأصناف نفسَها.

-وماذا في ذلكَ؟

-ها. ها. هُنا تُكمنُ المشكلةُ إنَّ الزَّبونَ الَّذي يأتي إلى السُّوقِ يكونُ قد قرَّرَ سلفًا أنَّه سيتوجَّهُ إلى بسطةِ الأدواتِ المنزليَّةِ، وفي البداية كنَّا بسطتينِ فقط، وكانَ الزَّبونُ مُجبرًا أن يأتي إلينا أو إلى البسطةِ الثَّانيةِ، وبذلكَ يكون أمامَ خيارينِ لا ثالثَ لهما. والشاطر منَّا يكسبُ الزَّبونَ ويزداد كسبُهُ بنهايةِ اليومِ. هل فهمت؟

-لا.

- معَ مرورِ الزَّمنِ انضمَّ إلى سوقِ الأدواتِ المنزليَّةِ أكثر من عشرِ بسطاتٍ من البضائعِ نفسِها، فالزَّبائنُ محدودون، وبالتَّالي تصبحُ أمامَهم خياراتٌ مُتعدِّدةٌ، فيتوزَّعُ ما في جيوبِهم بين تلكَ البسطاتِ المختلفةِ، وبذلك يخفُّ كسبُنا الَّذي يتعلَّق بكثرة مبيعاتنا، هل وضحت الفكرةُ؟

-بعضَ الشَّيءِ.

-الخلاصة. كانَ رزقنا مُتعلقًا بنقصِ وزيادةِ عددِ البسطاتِ فقط.

-هكذا إذًا.

-نعمْ.

انفصلتُ عن أخي بالعملِ وليس بالشَّراكةِ، بينما ظلَّ هو في السُّوقِ، وأنا عملتُ في المحلِّ، وعلى سبيلِ ذكرِ المحلِّ لم تأتِ فكرتها مِنَ الفراغِ، إنَّما جاءت بالدَّرجةِ الأولى، في الوقتِ الَّذي كُنَّا نذهبُ إلى محالِّ الجملةُ نبتاعُ من عندِهم البضائعَ تقريبًا بشكلٍ شبهِ

يومي. ونحنُ نتبضعُ لمعتْ فكرةٌ في ذهني؛ قادتني أنْ أعملَ بتجارةِ الجملةِ. كانت العمليَّةُ بسيطةً جدًا، وما عليكَ إلَّا أن تتخذَ بعضِ الخطواتِ البسيطةِ لتصبحَ في صفوفِ تجَّارِ الجملةِ، وواحدًا منهم. فالكثيرونَ سيسخرون منِّي وسيقولونَ إنه مُسيلمةُ الكذَّابُ خرجَ مِنَ الأجداثَ. دعوني أشرحْ لكم تفاصيلَ ما حدثَ معي، عندما استأجرَتُ المحلَّ أخيرًا، وقد اقترحت كما أسلفتُ سابقًا أن يبقى أخي في الأسواقِ الشَّعبيَّةِ، وأن يأخُذَ من عندي بضاعةً بدلًا من أن يأخُذَ من المحالِّ الأخرى، وبهذا الشَّكلِ يصبحُ لديَّ أوَّلُ زبونٍ بالجملةِ. كما يقولُ المثلُ خطوةُ الألفِ ميلٍ تبدأُ مِنَ الخطوةِ الأولى، وهذه كانت ضربةً موفقةً منِّي، وخطوةً على طريق النَّجاحِ. أصبحتُ كالعادةِ أبتاعُ البضاعةَ من محالِّ الجملةِ من سوقِ القامشلي، وأبيعها لأخي بسعر الجملةِ؛ فأضيف على كلِّ قطعة منَ البضاعةِ مبلغًا بسيطًا، وبذلكَ أصبحَ لديَّ عميلٌ واحدٌ أتعاملُ معه بالجملةِ. هناك شيء آخر ساعدني في تقويةِ رأسمالِ المحلِّ، ألا وهو بيع بِضاعةِ المحلِّ بالمفرَّقِ، ونجحتُ في ذلك

فأصبحَ لديَّ بأقلِّ وقتٍ عددٌ لا بأس بهِ مِنَ الزَّبائنِ الَّذين كانوا يرتادونَ المحلَّ، وكانوا راضينَ عن سياسةِ الأسعارِ الَّتي أبيعُها لهم، ومعَ توالي عدَّةِ أشهرٍ جلبَ أخي معَهُ زبونًا آخرَ من أصدقائِهِ البائعينَ بالأسواقِ الشَّعبيَّةِ، فأصبحَ لديَّ زبونانِ بالجملةِ وهذا في حدِّ ذاتِهِ إنجازٌ، وهكذا معَ مرورِ الوقتِ أصبحوا أربعةً أو خمسةً، وحتَّى ذلك الوقت كنتُ أتسوَّقُ من مدينةِ القامشلي، وهي نفسُ المدينةِ الَّتي أسكنُ فيها، ومعَ نهايةِ العام بشهرين، أصبحَ بريقُ نجمي التِّجاريِّ يلمعُ بسماءِ سوقِ تجارةِ الأواني المنزليَّةِ بمدينة القامشلي، ولكنَّني كنتُ أرى أن هناك شيئًا ناقصًا أو غير متوازنٍ في المعادلةِ التِّجاريَّةِ بالنَّسبةِ إليَّ. حيثُ أنظرُ إلى نفسي كأني أصغرُ تجارِ جملة بالمدينة. كيف لي أن أُنافسهم بالمساومةِ وخفضِ الأسعارِ، لم يعطوني الأسعارَ كما قُلت فكيف تبتاع من تاجرٍ، وكيف لك أن تنافسه بسعرِ القطعةِ، وتبيعُ أرخصَ منه. فذلكَ ضربٌ من المُحال. كانت بالنَّسبةِ إليَّ كعقدةِ مستعصيةٍ غيرِ قابلةِ للحلِّ، وإذا بقيتُ على ذلك الحال فلن أصبحَ تاجرًا من الطِّرازِ

الأوَّلِ، لأنَّني أرى مستقبلي التِّجاريَّ بيدِ هؤلاءِ التِّجارِ الجشعينَ، الَّذين لا يعطونَ الأسعارَ المناسبةَ لكي تنافسهم، وهذا شيء أكيدٌ كما يقول المثل القائل لا أحدَ يُدخلُ الدُّبَّ إلى كرمِهِ، لكي يُخَرِّبَ عليه بيعته الَّتي يسترزِقُ منها، وبالتالي يأخُذ منه زبائنَ الجملةِ. لقد قلَّبْتُ الأمرَ على وجهِهِ ألفَ مرَّةٍ، وكانت هناك فكرةٌ ظلَّتْ تدورُ داخلَ رأسي طَوالَ الوقتِ، ألا وهي ستبقى تاجرًا صغيرًا إنْ بقيتَ داخلَ حدودِ المدينةِ الَّتي تعملُ بها، وستصبحُ تاجرًا كبيرًا إذا ما تسوَّقْتَ خارجِ حدودِ مدينتك، هنا يمكنُكَ فقط أن تكونَ مُنافسًا وندًّا قويًّا معَ التُّجارِ الآخرينِ على مستوى الأسعارِ، وفي هذه الحالةِ يجب أن أُنهي علاقتي بتجارِ مدينتي، لذا قرَّرتُ أن أُوسِّعَ نطاقَ دائرةِ التَّسوُّقِ. فذهبتُ إلى مدينة حلب التَّجاريّة، هناك كانَ عمالقة التُّجارِ في الأدواتِ المنزليَّةِ. هناك كان حيتانٌ ضخمةٌ وأسماكُ قرشٍ مُفترِسة. كما قُلتُ سابقًا: إذا تعامَلْتَ معَ الصَّغيرِ تصغرُ، وإذا تعاملتَ معَ الكبيرِ تكبرُ، وعلى هذا المنوالِ سيعرفني النَّاسُ أكثرَ وسأشتهرُ بينَ تجارِ الجملةِ بوقتٍ أقلَّ.

ولأوَّلِ مرَّةٍ ذهبنا إلى مدينةِ حلبِ العاصمةِ التِّجاريَّةِ لسورية، ولم أكُن قد ذهبتُ إليها من قبلُ، والشَّيءُ الوحيدُ الَّذي كنتُ أعرفهُ عنها إنَّهُ يوجدُ فيها أقوى سوقٍ وهو سوقُ المدينةِ التِّجاريُّ. نزلنا من الحافلةِ أنا وأخي بكراجات هنانو، وكانت عقاربُ السَّاعةِ تُشيرُ تقريبًا نحو السَّاعة السَّابعة صباحًا. ونحنُ الاثنين كُنا جاهلين بالتَّجوُّلِ بمدينةِ حلبِ التَّجاريَّةِ، وقد رأيتها فيما بعد كالصِّينِ الصَّغيرةِ، وقد استأجرنا سيارةَ أُجرةٍ من الكراجات، فأوصلنا إلى بابِ السُّوقِ، وطلبَ السَّائقُ أجرةَ التوصيلة خمسمئةِ ليرةٍ سوريَّةٍ، أعطيناهُ أُجرتهُ فورًا، ثم شكرناه مُبتهجينَ بما له من فضلٍ علينا بهذهِ التَّوصيلة، ولولا هذا السَّائقُ الرَّحيمُ ذو النَّفسِ السَّخيَّةِ لما تعرَّفْنا على السَّوق أبدًا. وعندما نزلنا كان بابُ السُّوقِ مُغلقًا، وسألنا أحد السَّابلةِ:

-متى يُفتحُ السُّوقُ؟

فقالَ لنا:

-في العاشرةِ والنِّصفِ تقريبًا تبدأُ المحال بفتحِ أبوابها.

رجعنا إلى الخلف، وكُنَّا نشعرُ بالجوعِ وقتئذٍ فسألنا رَجُلًا آخرَ منَ المارَّةِ:

-أينَ أقربُ مطعمٍ من هنا؟

استدارَ الرَّجلُ إلى الخلفِ وأشارِ بيدِه إلى جهةِ الغربِ وقالَ باقتضابٍ:

-ها هو.

بالفعلِ لم يكنْ المكانُ الَّذي أشارَ إليهِ الرجل ببعيدٍ عن مكانِ وقوفنا، كانت هناكَ سلسلةٌ مِنَ المطاعمِ الَّتي تُقدِّمُ الفولَ والحمُّصَ والفلافلَ. جلسْنا أنا وأخي حولَ إحدى الموائدِ الشَّاغرةِ، ثمَّ طلبْنا لِكلِّ واحدٍ منَّا صحنَ فولٍ بزيتِ الزَّيتونِ الأصليِّ، وبعد أنْ تناولنا الطَّعامَ قُمنا بجولةٍ قريبةٍ في تلكَ المنطقةِ ليس من أجلِ حُبِّ المعرفةِ والاستطلاعِ، وإنَّما من أجلِ تضييعِ الوقتِ حتى يفتحَ السُّوقُ أبوابَهُ أمامَ الزَّبائنِ. نعم حانَ وقتُ

دخولِنا إلى أوَّلِ محلٍّ؛ فرحَّبَ بنا التَّاجرُ، وبادرناهُ بالحديثِ وقُلنا لَهُ إنَّنا قادِمونَ من مدينةِ القامشلي لنشتري البضائعَ بالجملةِ، وأكَّدنا له أنَّها أوَّلُ زيارةٍ لنا إلى مدينةِ حلبِ؛ فرحَّبَ بِنا ترحيبًا حارًّا، وقدَّمَ لنا الشَّاي بالحليبِ على الطَّريقةِ الإنكليزيَّةِ العريقةِ، وأعجبنا ببعضِ البضائعِ عندَهُ، وتكرَّمَ التَّاجرُ بإعطائِنا السِّعرَ المناسبَ، فشكرناهُ أنا وأخي معًا على كرمِ الضِّيافةِ، وقد أكَّدنا لَهُ أنَّنا سنعودُ إليهِ بعدَ إتمامِ جولتنا على المحالِّ الأُخرى؛ فأبدى التَّاجِرُ سرورَهُ بما قُلنا له، وانسحبنا مُغتبطين مما أنجزناهُ في أوَّلِ خطوةٍ لنا داخل سوقِ المدينةِ. ونحن نسير بِبُطءٍ شديدٍ كُنا نلتفِتُ بأنظارنا الحائرةِ يمينًا وشمالًا إلى واجهات محالِّ الجملةِ المليئةِ بِمُختلف أصنافِ وأنواعِ بضائعِ الأواني المنزليَّةِ، ثُمَّ دلفنا إلى محلٍّ آخرَ وسألنا عن الأسعارِ، حتى بلغَ عدد المحالِّ الَّتي زرناها أكثر من ثلاثينَ محلًّا. وأخيرًا قارنا بينَ الأصنافِ المتشابهةِ من حيثُ الأسعارُ. هذا ما قلَّصَ لدينا عددَ المحالِّ الَّتي سنتسوقُ من عندهم، حيثُ اعتمدتُ على دفترٍ صغيرٍ وضعتهُ في جيبي من أجلِ تسجيلِ اسمِ المحلِّ

الَّذي سنعودُ إليهِ بآخرِ جولتنا. كانت السَّاعة تُشيرُ إلى الثانيةِ من بعد الظُّهرِ، وقد أسفرَ رأيُنا أنا وأخي بالتَّحديد على ثلاثِ محال جملةٍ فقط من بين تلك الَّتي طفنا بين جنباتها، ومن ثُمَّ بدأنا نُثبت من عندهم الأقلام الَّتي تُناسبنا بسعرِها النِّهائيِّ، وبعدها سدَّدنا ثمنَ فاتورةِ بضاعةِ الجملةِ نقدًا.

والشَّيءُ الَّذي عرفتهُ منذُ بدايةِ تجربتي، إنْ لم تُغامر فلا أحدَ يقدِّمُ لكَ نصيحةً أو يدلُّكَ على طريقِ التِّجارةِ، أو حتَّى يعلمكَ شيئًا بسيطًا في هذه الحياةِ، وستبقى تراوِحُ في مكانِك مثلَ مروحةٍ مُعلقة بِسقفِ الغرفةِ. نعم لن أنسى ما حُييت بأننا أنجزنا في تلكَ الرِّحلةِ التَّجاريَّةِ مُعجزةً عظيمةً بعالمِ التِّجارةِ، فكانَت الخطوةَ الأولى نحو طريقِ الشُّهرةِ وجمعِ المالِ.

في السَّاعةِ الخامسةِ والنِّصفِ كُنَّا بِكراجات هنانو لِنقطعَ تذاكر العودةِ إلى مدينةِ القامشلي، وقد أخذ منَّا سائقُ سيارةِ الأجرةِ خمسَمئةِ ليرةٍ سوريةٍ أُجرةَ المسافةِ من سوقِ المدينةِ إلى كراجاتِ هنانو، فبلغت بذلك أجرةُ الذَّهابِ والإيابِ ألفَ ليرة

سوريَّةٍ. وبعدَ مُضي ثلاثةِ أيامٍ على عودتنا من مدينةِ حلب التِّجاريَّةِ، اتَّصل بنا صاحبُ مكتبِ الشَّحنِ، وأخبرنا بأنَّهُ علينا أن نقومَ بإستلام بضائِعنا الَّتي وصلت للتوِّ، وذهبنا على جناحِ السُّرعةِ غيرَ مُصدقين حينها بهذا الإنجازِ الرَّائعِ الَّذي قُمنا به أنا وأخي. كانت غايتنا الأساسيَّةُ التَّخلُّصُ من سيطرةِ جشعِ تجارِ الجملةِ في مدينة القامشلي. نعم لقد أصبحنا أخيرًا أحرارًا، ويمكنُنا أن نُنافسهم في تخفيض الأسعارِ والمساومةِ مع عُملاءِ الجملةِ. لقد صِرنا رأسًا كبيرًا ذا قيمةٍ بينَ رؤوسِ التُّجارِ. منذُ الآن يجب أنْ نقومَ بالمُناطحة معهم كما تفعلُ الكِباشَ معًا في مباريات القوَّةِ وعرضِ العضلاتِ، وهناك شيء مهمٌّ يجبُ ألَّا أغفلَ عن ذكره، لقد أُصبنا بِخيبةِ أملٍ كبيرةٍ، حيثُ استلمنا نصفَ بضائِعنا مكسورةً، بالرَّغمِ من كتابةِ التَّاجرِ على جميع الصَّناديقِ عبارةَ (**سريعُ العطبِ**)، إلَّا أنَّ استهتارَ عمالِ الشَّحنِ الأغبياءِ أدَّى إلى ضررٍ بالغٍ لحقَ بنا. أحسستُ في تلكَ اللَّحظةِ أنَّني سأفقدُ وعيي، وأنَّهُ سيُغمى عليَّ من شدَّةِ الصَّدمة وهولها الَّتي تلقَّيتُها عند رؤيتي

لتلكَ البضاعةِ المعطوبةِ، ولكنْ حاولْتُ برباطةِ جأشٍ امتلاك نفسي الحانقةَ، وشددتُ عزيمتي، وقوَّيتُ من إرادتي وقلْتُ لنفسي المُحطَّمةِ، إنَّ التَّجارةَ ربحٌ وخسارةٌ، وهذه تجربةٌ أولى يجبُ أن نتقبَّلها بروحٍ رياضيَّةٍ عاليةٍ كما يقولون. لقد استلمنا البضاعةَ من صاحبِ الشَّحنِ الَّذي أضرَّ بنا كثيرًا، وقد نقدناه أُجرةَ الشَّحنِ بالكامل، من دونِ أن يخصمَ لنا شيئًا، فيُقلِّلَ قليلًا من خسائرِنا على الأقلِّ. لم يحدث شيءٌ من هذا قطُّ، وبالرَّغم -كما أسلفتُ سابقًا- أنَّ الخسارةَ كلَّها جاءت من عمَّالِ التَّحميلِ والتَّنزيلِ المستهترينَ بِأرزاقِ العِبادِ المبتدئين مثلنا، وفي الأيام التَّاليةِ بيعت البضاعةُ بأقلَّ من شهرٍ، ولكنَّ فوائدَنا فيها كانت قليلةً جدًا، لأنَّنا أضفنا عليها ثمنَ البضاعةِ المعطوبةِ مع مصاريفِ الشَّحن. ومن وجهةِ نظري لا يهمُّنا الرِّبح بهذهِ السَّفرة كثيرًا، ولكنَّ الشَّيءَ الأهمَّ من ذلك كُلِّهِ أنَّه قد بدأ اسمنا ينتشرُ بينَ التُّجارِ ولو بشكلٍ ضعيفٍ، وثانيًا اكتسبنا حافزًا نفسيًّا قويًّا يدفعنا بِشغفٍ إلى التِّكرارِ، وبالفعل أتبعناها بالسَّفرةِ الثَّانيةِ، وعندما نزلنا بِكراجات

هنانو، حيثُ اختلف الأمر معنا هذه المرَّة، تصوَّروا بِكم كانت أُجرة التَّوصيلةِ الَّتي ذهبنا إلى سوق المدينة في المرَّةِ الثَّانية، وقد كانت وسيلةُ نقلنا باصاتُ نقلٍ داخليٍّ خضراءِ اللَّونِ، حيثُ نقدنا أُجرتنا أنا وأخي عشرةَ ليرات سوريَّةٍ، وعدنا بنفس المبلغِ، أصبحَ مجموعُ الذَّهابِ مع الإياب عشرين ليرةً سورية بدلًا من ألفِ في المرَّة الأولى. فلاحِظُ الفرقَ الكبيرَ معي، والشَّيءَ الَّذي عرفتهُ من هذه التَّجربةِ. إن لم تُخطئ أو تُغامر لا أحدَ يُعلِّمك في هذه الحياةِ، وستبقى كما كُنت إلى أبدِ الدَّهرِ، لقد كانت خسائرُنا ضئيلةً بالسَّفرةِ الثَّانيةِ قياسًا إلى السَّفرةِ الأولى، لأنَّ التَّاجرَ الحلبيَّ نصحنا أن نشحنَ البضاعةَ مع مكتبِ شحنٍ آخرَ غيرِ المكتبِ الأوَّلِ الَّذي لا يراعي مصالحَ العبادِ، وبالفعلِ عندما استلمنا بضائعنا هذه المرَّة كانت سليمةً جدًا، والشَّيءُ الآخر الَّذي أفادنا في هذه الرحلةِ تعمُّقُ معرفتنا أكثرَ مع تجارِ الجملةِ، وتبادلنا أرقام الهواتفِ مع تجَّارٍ آخرينَ يعملون بنفس صنف الأواني المنزليَّة الَّتي نعملُ بها، وأصبحنا فيما بعدُ نطلبُ البضائعَ على الهاتفِ، لقد ثبَّتنا أقدامنا

بثباتٍ في أرضيَّةِ عالم المالِ وتجارة الأواني المنزليَّةِ بسوق مدينة القامشلي وضواحيها العديدةِ. حيثُ يقول آدم سميث أبو الاقتصاد: إنَّ هناك يدًا خفيَّةً تعملُ في الظَّلامِ، وهذه اليدُ تمدُّ لك المالَ من أجلِ العملِ، ولكنْ ليسَ محبَّةً فيكَ، وإنَّما من أجلِ مصلحتِها بالدَّرجةِ الأولى؛ فتتحقَّقُ معها مصلحتُك أيضًا، وهذه اليدُ الممدودةُ لنا كانت مِنَ التُّجَّارِ، من بعدِ ما توثَّقت عُرى التَّعارُفِ والتَّعاملِ المستمرِّ منذُ أنْ وطأَتْ أقدمنا أرض مدينةِ حلب العاصمةِ التَّجاريَّةِ لسوريَّةِ، وحتَّى مدَّةٍ طويلة من الزمن. فأيقنَ أغلب تجَّارِ الجملة أننا جماعةٌ ملتزمونَ بِعملنا، وحريصون على دفعِ ثمنِ بضائعِهم نقدًا، فجاءَ اليوم الَّذي كانوا فيه واثقين على أنَّنا على درجةٍ عاليةٍ من الأمانةِ والإخلاصِ، فنقدونا بالتَّقسيطِ المُريحِ على دفعاتٍ مُتتالية، بِما تُلبي مصلحتهم المادِّيَّة بالدَّرجة الأولى. دعني أُضيف شيئًا مهمًا للغايةِ، وأقولها بصراحة واضحةٍ دون أدنى مواربةٍ للحقيقةِ. كانت الضَّربةُ القاضيةُ لنا في عالمِ المال والأعمالِ على الأقل بذلكِ الوقتِ، ثُمَّ أخذتُ خطوةً

أكثرَ جُرأةً هذه المرَّة، حيثُ منعت أخي من الذَّهابِ إلى الأسواقِ الشَّعبيَّةِ الَّتي كان يتردَّدُ عليها باستمرارٍ، ووضعتُ السَّيارة وأخي بِخدمة توزيعِ البضائعِ على المحالِّ بجميعِ المناطقِ بسعرِ الجملةِ. كانت بدايتنا بسيارة سوزوكي صغيرةٍ، وهي غير مُناسبةٍ لهذه المُهمَّةِ الجديدةِ، نعم كان النَّجاحُ بعمليةِ التَّوزيعِ حليفنا بشكلٍ رئيسيٍّ، وعلى الفورِ بدأتُ أطلبُ كمياتٍ كبيرةً من مُختلفِ أصنافِ البضاعةِ من العاصمةِ التِّجاريَّةِ الوحيدةِ بالبلدِ، وأصبح لي بعدها اسمٌ بينَ تجَّارِ جملةِ الأواني المنزليَّةِ هناك. ولكن وضعتُ ببالي إذا ما وقفتُ التَّسوُّقَ عند حدودِ حلب فقط فلن أُحقِّقَ أرباحًا كثيرةً، وعليَّ أن أُوسِّعَ من نطاقِ دائرةِ تجارتي، ولذلكَ فتحتُ خطًا إلى تركيا بجانبِ التَّعاملِ مع بعضِ تجَّارِ دمشق العاصمة؛ فزادت هذه العمليَّةُ رأسمالي أكثرَ، وأصبحتُ أُنافس أقوى التُّجَّارِ الَّذين عملوا بهذه المصلحة منذُ أكثر من ثلاثين عامًا، وأنا عمري ما زال بِمُمارسةِ هذهِ المهنةِ تقريبًا قد بلغَ سنتين، منذُ أن تعلمتُ ألف باء التِّجارةِ.

توقَّفَ عَنِ الحديثِ.

فقالَ الكاتبُ:

-من الَّذي أوحى إليك العملَ بتجارةِ الجملةِ؟

-سؤالٌ وجيهٌ.

-كيفَ؟

-لا أحدَ.

-ولا أصدقاء؟

ردَّ عليه التَّاجرُ:

-دعني أُخرجكَ من حيرتِك يا صديقيَ الكاتبَ.

وتابعَ التَّاجرُ:

-عندما كنتُ أشتري بضائعَ الجملةِ بمدينةِ القامشلي. طبعًا هذا الكلامُ أقوله منذُ بِداياتي بالأسواقِ الشَّعبيَّةِ، حيثُ أنظر إلى تاجرِ الجملةِ وهو يعطيني فاتورةِ الجملةِ، وأخرجُ من عندِهِ. أسألُ

نفسي ولماذا لا أُصبِحُ مثلَهُ أنا الآخرُ، فهو ليسَ أفضلَ منِّي بشيء، ولذلك صمَّمتُ وأصررتُ أن أصبحَ تاجرَ جملةٍ بِأقربِ وقتٍ ممكُن، وهكذا تمنيتُ وبالتالي تحقَّقت أمنيتي أخيرًا. ولكن لا تنسوا شيئًا مُهمًّا فقد تحقَّقت بالعملِ ولا شيءَ غير ذلك، ومن يقولُ غيرَ ذلك فهو واهمٌ ولا أساسَ لقولهِ من الصِّحَّةِ، وحتَّى الحظُّ السَّعيدُ والفرصُ النَّادرة لا تأتي إلَّا بالجهدِ المتواصلِ. وعندَها يجب ألَّا تُفلت تلكَ الفرصُ من بين يديك كي لا تطيرَ مثلَ الطُّيورِ. هل عرفت؟

- نعم.

وتابعَ الكاتبُ:

-بالعملِ الدَّائمِ حقَّقتَ ما تمنَّيته وبِأقلِّ زمنٍ أيضًا.

-نعم. حقَّقْتُ الغايةَ الَّتي كنتُ أتمنَّاها في عالمِ التِّجارةِ.

-وهذا ما حصلت عليه بالنِّهايةِ؟

-بالطَّبعِ يا صديقي.

سألَ الكاتبُ سؤالًا لا يقلُّ أهمِّيَّةً عَنِ الأوَّل:

-قُلتَ في معرضِ حديثكَ شيئًا مهمًّا يستحقُّ الوقوفَ عندَهُ. وهو أنَّه إذا تعاملتَ مَعَ الكبيرِ تَكبرُ، وإذا تعاملت مَعَ الصَّغير تصغر، فكيفَ يكونُ ذلكَ؟

أجابَ التَّاجرُ بِكُل ثِقةٍ:

-السِّرُّ يا صديقي الكاتب كانَ يكمنُ في الخروج من تحتِ سيطرةِ تجَّار القامشلي الصِّغار الَّذين يعملونَ في عالم المال والتِّجارة، ولو بقيتُ في حدودِ مدينةِ القامشلي، لما كُنت عليه الآنَ بِعالم تجَّارِ الجملة؛ فتعاملي مع تُجار حلبَ الكِبارِ هو الَّذي كبَّرني.

فقالَ الكاتبُ:

-أُحيِّيك من كُلِّ قلبي على هذا الذِّكاءِ التِّجاريِّ الَّذي تملكهُ.

ردَّ عليه التَّاجرُ:

-شُكرًا جزيلًا لك.

سألَ الكاتب مُجددًا:

-هل يمكنُ أن اسألكَ سؤالًا آخرَ لا يقلُّ أهمِّيَّةً عن سابقِهِ؟

أجابَ التَّاجر:

-سلَ ما تُريد؟

-أثرتَ في معرضِ حديثِك الشَّائقِ عن تلكَ الضَّربةِ الموفِقة في عالم التَّجارة، وهو التَّوزيع بالجملة على المحالِّ.

قاطعَهُ التَّاجرُ:

-فهمت ما تُريد قولهُ مَنَ الَّذي أشار إليك أن تقومَ بعمليَّةِ توزيعِ البضائعِ بسيارةِ الشَّحنِ المُغلقة خارجَ مدينةِ القامشلي.

-بالضَّبط.

-بِمُجردِ أن أنظُرَ إلى غيري وهو يعمل أتعلَّمُ منه بسرعةٍ. لم يشر أحدٌ عليَّ بأن أُخرِجَ أخي مِنَ الأسواقِ الشَّعبيَّةِ.

وتابعَ التَّاجرُ:

-كنتُ أرى التُّجَّارَ الآخرين لديهم سياراتُ التَّوزيع فتعلَّمتُ منهم.

أكَّدَ الكاتب مرَّةً أُخرى:

-أُحيِّيك عل هذا الإبداع المُتجدِّدِ يا صديقي التَّاجرَ.

-وأنا أشكُركَ على مدحِكَ لي مرَّاتٍ عديدةٍ.

فقالَ الكاتبُ:

-أعترِفُ لكَ أنَّ ذكاءكَ موروثٌ، وليس مُكتسَبًا مِنَ البيئة الَّتي تعيشُ فيها.

أجابَ التَّاجرُ:

-هذا كانَ إحساسي منذُ نعومةِ أظفاري، والأصحُّ وأنا بِبطنِ أمِّي.

(2009)

هذهِ المرَّة سأنتقلُ إلى الحديثِ عن فنونِ البيعِ بالمفرَّقِ داخل المحلَّ، أنا أتحدثُ عن نفسي وليسَ عن أحدٍ. والقاعدةُ الأولى لقد كنتُ مرِنًا في التَّعاملِ مع الزَّبون. وكانَ لساني ينقطُ منه العسلُ، أو كما يقولونَ: فلانٌ معسولُ الكلامِ، وهكذا أكسبُ ثِقةَ الزَّبونِ بأقصى سرعةٍ، فيصبحُ مُطيعًا تسهلُ قيادته بسهولةٍ، حيثُ أختارُ أنا القطعةَ الَّتي أُرِيدُها له. وهناكَ قاعدةٌ أخرى لا تقلُّ أهميةً عن الأخرى ألا وهي القاعدةُ الثَّانيةُ، إذا قامَ الزبون بكسرِ قطعة من البضاعةِ مهما كان ثمنها غاليًا، ولكن شرطَ أن تكونَ عمليَّةِ الكسرِ غيرَ مقصودةٍ، ولو بلغ قيمتها مئةَ دولار فلن أُغرِّمهُ بها. وكنتُ أعفيهِ من دفعِ ثمنها، وإذا قامَ الزَّبونُ وأصرَّ على أن يدفع لي. أرفضُ طلبَهُ بشدَّةٍ، هذه كانت القاعدةُ التَّالية المتَّبعة داخلَ المحلِّ، ثمَّ أشرحُ للزَّبونِ الَّذي كادَ يموتُ خجلًا واستحياءً، ويرجوني أن أبيعهَ تلك القطعةَ المكسورةَ، حيثُ أردُّ عليه إنَّ قانونِ المحلِّ يقولُ القطعةُ الَّتي تنكسرُ بيدِ الزَّبونِ لا تُباع له ولا يُغرَّم بثمنِها. مؤكِّدًا

له كأنَّها قد وقعت من يدي وانكسرت، وهكذا يخرجُ الزَّبونُ من عندي مرتاحًا من خلالِ هذا التَّعامل الحسنِ معَهُ، وكلُّ هذا العملِ يصبُّ في صالحِ سمعةِ المحلِّ طبعًا. وبالنِّهايةِ أكونُ قد كسبتُهُ طولَ العمرِ، وإذا التقى واحدًا آخرَ حصلَ لهُ ما حصلَ مع صاحبنا، إنَّهُ سيذكرُني وسيذكرُ اسمي واسمَ المحلِّ له، وسيقوم بمدحي وما قمتُ به من واجبِ الإعفاءِ تجاهِ القطعةِ الَّتي كُسرت بينَ يديهِ. وباعتقادي كانَ زبائنُ المحلِّ يكثرونَ مع تطبيقِ هذهِ القاعدةِ مع مرورِ الوقتِ. أمَّا القاعدةُ الثَّالثةُ بخصوصِ البيعِ بالمفرَّقِ فهي عندما أبيعُ قطعةً مِنَ البضاعةِ إلى أحدِ الزَّبائنِ، وقد دفعَ ثمنَها نقدًا، ثُم غابَ لمدَّة من الزَّمن، وأتى بتلكَ القطعةِ الَّتي اشتراها من قبل، ثُم طلبَ مني أن أُعيدَها له لن أتردَّدَ ولو للحظةٍ واحدةٍ في الاعتراض، وأقولُ له على الرَّحبِ والسَّعةِ، وأُزيدُ عليها ابتسامةً في وجهِ الزَّبون الَّذي أرجعَ القطعةَ الَّتي اشتراها من المحلِّ منذ زمنٍ بعيدٍ، وأُضيفُ عليها نكتةً فُكاهية. فقط من أجل أن يضحكَ، ومن بعدها أُسدِّد له ثمنَ القطعةَ الَّتي أرجعها، ولو لم

أقُم بذلك العمل حتمًا سأكونُ قد خسرت بذلك الزَّبونَ إلى الأبد، ولماذا لا أكسبهُ هو ومَنْ حولَهُ من دائرةِ أصدقائِهِ وأقاربهِ زبائنَ دائمين للمحلِّ! حتمًا سيرجع مرَّة أخرى بعد العملِ الَّذي قُمتُ به، وفي المرَّة القادمة سأرفع بعض الشيء من سعر القطعةِ الَّتي سيشتريها، وهذا كفيلٌ بتعويضي عن خسارةِ القطعةِ الأولى الَّتي قامَ الزَّبونُ بترجيعها، فأكونُ قد حصلتُ على حقِّي منه بالكاملِ، هذا هو منطقي في البيعِ والشِّراءِ. وبِخصوص القاعدةِ الرَّابعة، وقد أشعرُ بِفخرٍ شديد نحوها، كنتُ أجِدُ فيها كطُعم لِكسب الزَّبون، سأكونُ صريحًا معكُم بالرَّغم مما يقولهُ الكثيرون إنَّ الصَّراحةَ وقاحةٌ، أنَّني تعلمتُ هذه الطَّريقة من صيادي السَّمكِ المُحترفين، اللَّذين يضعونَ ديدانًا صغيرةً أو قطعةً من العجينِ في صنارتهم، ثُمَّ يرمونها في قاعِ الماءِ، فتكونُ وسيلةً نافعةً لجلبِ أسماكٍ كثيرةٍ إليها بالنِّهاية، وأنا أيضًا استعملتُ وسيلةً لا تقلُّ أهميةً، بالطَّبع كُلٌّ بمجالِ عملِهِ، أمَّا طعومي فكانت قطعُ الحلوى والألعاب الصغيرة أُقدِمُها إلى الأطفالِ اللَّذين كانوا يأتونَ معَ

أمهاتِهم إلى المحلِّ من أجلِ الشِّراءِ، وقبل أن يبدأَ الزَّبون بِمُساومةِ القطعة أتوجَّهُ من فوري إلى درجِ الطَّاولةِ الَّتي أجلسُ عليها، وأقومُ بِفتحها، ثُم أُخرِجُ منها أحد الطُّعوم المُختلفة وأضعُها مُباشرة بيدِ ذلك الطِّفلِ الصَّغيرِ الَّذي كان يُرافقُ أمَّهُ بعمليَّةِ الشِّراءِ، والشَّيءُ الأهمُّ أنَّني بهذا الفعل والَّذي يكون في نظر الزَّبونِ قد يكون كهدية، أو ربَّما قد فكر بِأنها عمليَّة استعطاف أو مُجاملة من صاحبِ المحلِّ تجاهَ طفلهِ الصِّغيرِ، وبالنِّسبةِ إليَّ أكونُ قد غرستُ في ذهنِ ذلك الطِّفلِ فكرةً لا يمحوها الزَّمنُ أبدًا. فكُلما مرَّ هذا الطِّفلُ مع أمِّهِ أمامَ محلِّ بيعِ الأواني المنزليَّةِ سيُجبرُ أمَّهُ على أن تدلفَ إلى المحلَّ، لأنه سيتذكر ذلك الحافزَ المادِّيَّ الَّذي تلقَّاهُ من يدِ صاحبِ المحلِّ على شكلِ قطعة حلوى أو لعبةٍ صغيرةٍ، وسيصرُّ بِعناده الطُّفوليِّ على إجبارِ أمِّهِ على الشَّراءِ. فيدخل الزَّبونُ إلى المصيدةِ، من أجلِ أن يفوزَ طفلُهُ بِطُعمٍ صغيرٍ قد أعدَّهُ لهم سلفًا صاحبُ المحلِّ، وبهذا العمل تزدادُ مبيعاتي أكثرَ فأكثرَ بالمفرَّق. هناك ملاحظة مهمَّة يجب أن أذكُرها، وهي تتعلَّقُ بالأطفالِ

وأهاليهم، وهُم يدلفون معًا للمحلِّ الممتلئ بالبضائعِ الَّتي تتصفُ بعبارةِ سريعِ الكسرِ، وأكثرها أصنافٌ مُكوَّنةٌ من البلورِ الرَّقيقِ، فترى أغلب الأمهات يلتهينَ بالبضائع الَّتي تُبهر الأعينَ النَّاظِرة إليها، ثم ينسون أطفالهم الَّذين جلبوهم معهم وهم يعبثونَ ويلعبونَ على حُريتهم بتلكَ الأصنافِ من البضائعِ سريعةِ العطبِ، والشَّيء المهمُّ هنا حذارِ أن يرفع البائعُ الذُّكيُّ صوتهُ على الطَّفلِ العابث، أو يوبخهُ، فتكونَ العاقبةُ وخيمةً من قِبل الأمِّ ذاتِ الحساسيةِ العاليةِ من هذه النَّاحيةِ. فسرعانَ ما يكونُ ردُّ فعلها عنيفًا جدًا إزاء ذلك التَّصرُّفِ الَّذي تراه أرعن بحقِّ ابنها الصِّغير، وتراها منزعجةً إلى أقصى درجةٍ، فتقومُ بسرعة البرقِ بالخروجِ من المحلِّ دون أن تشتري شيئًا. فيكونُ البائعُ هو الخاسرُ الأكبرُ، أمَّا إذا قلبت الأمرَ على وجههِ الآخر، ألا وهو عدمُ القيامِ بنهرِ الطِّفلِ العابثِ، وتركه على حريتِهِ كي يلعبَ بالبضائعِ ويجعلها بحالة فوضى وعشوائيَّة، وإن لم يقُم بعطبها، فيكونُ البائع بهذهِ الحالةِ هو الفائزُ بالنِّهايةِ، وتكون قد بعتَ قطعتكَ بسعرٍ

مُناسب لِأم الطِّفلِ، وفي الأخير تكونُ قد كسبتها زبونةً دائمةً للمحلِّ.

أمَّا القاعدةُ الخامسةُ الَّتي تعلمتُ أنْ أتَّبعها في المحل فكانت على الشَّكلِ التَّالي. عندما كانَ يدلفُ الزَّبونُ إلى الدَّاخل، وأعرِفُ أنَّه سيشتري البضاعةَ، وعندما أرى على وجههِ علاماتِ الخوفِ والتَّردُّدِ، وأن خطواتهِ بطيئةٌ وحذرةٌ، وهو ينتقلُ من صنفٍ إلى آخرَ، ولذلك كان يجبُ عليَّ كبائعٍ حاذقٍ أن أتصرَّفَ بذكاءٍ وحِكمةٍ، فأقتربُ من الزَّبونِ وأعطيهِ الاهتمامَ اللَّازمَ، بحيثُ أُساعِدُهُ في اختيارِ الصِّنفِ الَّذي جاءَ من أجلِ شرائه، فيسهِّلُ ذلك على الزَّبون في الاختيار، على أساسِ أن يعطيه البائعُ إيضاحاتٍ واضحةً وصريحةً عن الميزاتِ وطريقةِ الاستخدامِ الأمثل، وأن يقومَ بِشرحِ المنتجِ الَّذي سيشتريهِ، ويذكرُ لهُ عن جودةِ القطعةِ، وكذلك أن يبينَ له نتائج سوءِ الاستعمالِ فيما بعدُ، وبهذه الطَّريقةِ في البيعِ، أكونُ قد اكتسبتُ ثقةَ الزَّبونِ واهتمامَهُ، وقد أبيعُ له القطعةَ بالثَّمن الَّذي أريده أنا، ولكنْ يجب ألا يَغيبَ

عن بالنا الصَّراحة في إتمامِ تلكِ الصَّفقةِ الَّتي تمَّت بينَ البائعِ والمشتري، وبهذهِ العمليَّةِ تكونُ قد نجحتَ في ضمِّ أصعبِ زبونٍ إلى قائمةِ الزَّبائنِ الدَّائمينَ إلى محلِّكِ، مُبتعدًا عن شيءٍ اسمُهُ الخسارةِ بِقدرِ الإمكانِ، على الرَّغمِ ممَّا يقولون: إنَّ التِّجارةَ ربحٌ وخسارةٌ.

قاعدتي هي أنَّ الزَّبونَ يُشبهُ حبَّاتِ المسبحةِ الَّتي تتألفُ من مئةِ حبَّةٍ، فالحبَّةُ الواحدةُ تسحبُ من بعدها الحبَّة الَّتي تُجاورها في الخيط، حتى نصل لختم مئةِ حبَّة، هكذا كان يُطبَّقُ على الزَّبونِ الوحيد، حيثُ التَّعامل الحسنُ والكلمةُ الطَّيبةُ، والسِّعرُ المُناسبُ. حيثُ يستطيعُ الزَّبونُ الواحدُ أن يجرَّ من ورائهِ لك مئةَ زبونٍ آخرَ من الدَّائرةِ الَّتي تُحيطُ به في الحياةِ الَّتي يحيا فيها، ومعَ تقادمِ الأيامِ يسحب معَهُ جيشًا جرارًا من خلفهِ إلى داخلِ المحلِّ.

وهناك قاعدةُ 250 لجيرارد بائعِ السَّياراتِ المشهورِ. يذكر في كتابِهِ الشَّهيرِ كيف تبيعُ أيَّ شيءٍ لأيِّ إنسانٍ، حيثُ تنصُّ القاعدةُ أنَّ كلَّ شخصٍ يعرفُ على الأقلِّ 250 شخصًا

من الأصدقاءِ المُقرَّبينَ والجيرانِ والأهلِ. فإنَّ كُلَّ مشترٍ تخسرُهُ تخسرُ معهُ هذا العددَ ثمَّ تتضاعفُ الخسارةُ، وإنْ فزتَ بكسبِ الشَّخص ستكسبُ معَهُ أضعافَ هذا العددِ في النِّهايةِ سيصبح جيشًا كثيرًا يصعبُ عدُّهُ، وذلكَ كلُّهُ إذا ما أحسنتَ إيجادَ التَّعاملِ مع الزَّبونِ بالَّتي هي أحسن.

علَّقَ الكاتبُ:

-يمكنُ أن أجزمَ أنَّ كُلَّ طريقةٍ في البيعِ كانت أروعَ من الأخرى.

ردَّ التَّاجر عليه:

-كُلُّكَ ذوقٌ.

-إنْ لم أُكن مُخطئًا بِكُلِّ طريقةِ كُنتَ تكسب عددًا هائلًا من المشترينَ والزَّبائن للمحلِّ.

ثُمَّ تابعَ الكاتبُ:

-أليسَ كذلكَ، أم أنا مُخطئ؟

فقالَ التَّاجر:

-بلى أنت لم تُخطئ في تقديرك أبدًا.

-وكانت محفظةُ نقودِك تتخمُ باستمرارٍ.

وتابعَ الكاتبُ:

-أم غير ذلك؟

-بالطَّبعِ هو كذلك.

سألَ الكاتبُ:

-ما شعورُك عندما كنتَ تنجح بِكلِّ طريقةٍ آنذاك؟

-أشعرُ بالزُّهو والنَّصر.

-وإذا قلبنا الأمرَ على الوجهِ الآخرِ؟

-لا شيءَ.

-هل أنت جادٌّ فيما تقولُ؟

-نعمْ.

جدَّدَ الكاتبُ صيغةَ السُّؤال بشكلٍ أوضحَ في هذهِ المرَّة:

-إذا ما فشلت في إقناعِ الزَّبونِ.

وتابعَ الكاتبُ:

-ماذا تفعلُ عندَها؟

-إذا ما فشلتُ بإحدى طُرق فنِّ البيعِ، سأنتقلُ إلى تطبيقِ طريقةٍ أخرى. إذا ما أخفقتُ بالطَّريقةِ الأولى، فيمكنني أن أنجحَ بالطَّريقةِ الثَّانية في البيعِ وهكذا.

فقالَ الكاتبُ:

-وفي حالِ الفشلِ، لا يعرفُ اليأسُ طريقَهُ إلى قلبك.

وتابعَ الكاتبُ:

-أم ماذا؟

-نعمْ. أنتَ صادِقٌ بقولِك هذا.

أكَّدَ الكاتبُ:

-أنتَ تؤمنُ بالفشلِ بالتَّوازي معَ النَّجاحِ.

وتابعَ الكاتبُ:

-أم هناكَ رَجَحانٌ لأحدِهما على الآخر؟

-نعمْ أعدُّ كُلَّ فشلٍ خطوةً تدفعُني بِشغفٍ إلى طريقِ تحقيقِ النَّجاحِ فيتحقَّقُ التَّوازنُ بينَ الطَّرفين.

-حقًا. أنا لا أُجاملُ في أنَّك تُجيدُ التَّجارةَ كمهنةٍ، وإنَّني أرى أنَّك ستصبحُ مستورِدًا عمَّا قريب.

وأكَّدَ الكاتبُ:

-وإنْ كنتُ مُتأكدًا من أنَّك ستملكَ معاملَ ومصانعَ بالمستقبلِ القريبِ.

وتابعَ الكاتبُ:

-إذا لم تقُم بتركِ مهنةِ التِّجارةِ، وتنتقل إلى مُمارسة مهنةٍ أُخرى غيرِها.

أجابَ التَّاجرُ:

-لا يسعني إلَّا أن أقومَ بِشُكركَ. يا صديقي الكاتبَ.

سألَ الكاتبُ:

-لديَّ بعضُ الأسئلةِ الشَّخصيَّةِ الآن، ثُمَّ سأنتقلُ إلى أسئلةٍ أُخرى تتعلَّقُ بالتِّجارةِ.

أجابَ التَّاجرُ:

-تفضلْ اسأل

- متى تزوَّجت؟

-عندَما تركتُ الفرقةَ الشَّعبيَّةَ بعد تلك الحادثةِ المشؤومةِ.

-وكيفَ كانت أحولكَ المادِّيَّةِ؟

-كنتُ فقيرًا.

فقالَ الكاتبُ:

-على ما أعتقدُ إنَّ لك أخًا كانَ قد فتحَ محلًّا للأوني المنزليَّة بالحيِّ وقد عملت معه فيما بعدُ بنفسِ المجالِ.

-نعم. هذا ما كانَ بعدَ فشلهِ بالمحلِّ.

فقال الكاتبُ:

-وجئت أنتَ وشاركتهُ، ثُمَّ ازدهرت أعمالكمُ التِّجاريَّةُ.

-هذا ما كانَ.

سألَ الكاتبُ:

-ما الرَّأسمالُ الَّذي بدأتم بِهِ حينَ مُشاركتك لأخيك، ودخولك الأسواقَ الشَّعبيَّةَ؟

-إذا قُلتُ لك بِصراحة لن تُصدِّقَ أبدًا.

-قُل ثِقتي بكَ عميقةٌ جدًا.

أجابَ التَّاجرُ:

-عندما أفلسَ محلُّ الحيِّ، أبقيتُ قليلًا من رأسمالِ أخي وأضفتُ عليه ما كانَ عندي. اشترينا بها سيارةَ شحنٍ صغيرةً بالشَّراكةِ، هذا ما كانَ من رأسمالِ لنا أنا وأخي.

-وماذا بعدَ ذلك؟

-كُنا نجلسُ أمامَ محلِّ الحيِّ الفارِغُ من البضاعةِ أنا وأخي، حيثُ نقومُ بدراسةِ الوضعِ، ونقول لبعضنا إنَّهُ يلزمُنا على الأقلِّ سنةً بِطولها لنحصلَ على مبلغٍ من المالِ لِشراءِ بِضاعةِ الأسواقِ الشَّعبيَّةِ، ومُباشرة العمل فورًا، إذا ما حصلنا على المالِ.

-وكيفَ حصلتُم على المالِ. أقصد بأيَّة طريقةٍ؟

ردَّ التَّاجرُ:

-لقد أسعفنا الحظُ السَّعيدُ. بعد عدِّة أيامٍ قليلة، ونحنُ جالسينَ أمامَ المحلِّ الفارغِ مِنَ البضاعةِ، توقَّفت سيارةُ شحنٍ مُغلقةٌ كبيرةُ الحجمِ، وترجَّل منها رجلٌ في الثَّلاثينَ من عمرِهِ، قصيرُ القامةِ، مربوعُ الجسمِ، وأصلعُ الشَّعر من النَّاصيةِ، وكانَ ذا

بشرةٍ سوداءَ داكنةٍ. سلَّم علينا ورددنا عليه السَّلام، ثُمَّ قامَ بِسؤالنا. أرى أنكم تجلسون أمامَ محلٍّ فارغٍ، وماذا كُنتم تعملون من قبلُ، وما هذه السَّيارةُ الواقفةُ؟ وقلنا له إنه محلُّ أوانٍ منزليَّةٍ سابقًا، وأننا لم نُوفَّقْ بالعملِ، ثُمَّ اشترينا هذهِ السَّيارة أنا وأخي بالشَّراكةِ لنعمل معًا بالأسواقِ الشَّعبيَّةِ.

فقالَ الكاتبُ:

-وبعدَها؟

أجابَ التَّاجرُ:

-ضحكَ الرَّجلُ صاحبُ سيارةِ الشَّحنِ المُغلقةِ، وقال لنا أنا أعملُ بتجارةِ الأواني المنزليَّةِ، ولقد خرجتُ من الأسواقِ الشَّعبيَّةِ قبل شهرينِ تقريبًا، وبِضاعتي ما زالت موجودةُ بِغرفةٍ في البيتِ.

سألَ الكاتبُ:

-هل اتَّفقتم على شيءٍ؟

-نعم. لقد حالفَنا الحظُّ بذلكَ اللِّقاءِ الَّذي تمَّ بالمصادفةِ، ومعَ العلمِ أنا أؤمنُ أنَّ العملَ هو الَّذي يجلبُ معَهُ الحظَّ وهنا يجب استغلالُ الفرصِ. واتَّفقنا مع ذلكَ الرَّجل الَّذي كانَ يوزِّعُ بالجملةِ، وأخذنا بضاعتَهُ الخاصَّةَ بالأسواق الشَّعبيَّةِ لِنُسددَ ثمنَها على أقساطٍ وليسَ نقدًا. فأنت تعلمُ أنَّنا لا نملِكُ مالًا.

-بِكم كانت تُقدر قيمةُ بِضاعتِهِ كُلُّها؟

-كانت تُقدر بقيمةِ ثلاثةٍ وسبعينَ ألفًا، وبِنهاية كُلِّ أسبوعٍ من العملِ، التزمنا معَهُ أن ندفعَ من قيمةِ المبيعاتِ الأسبوعيَّةِ، ما قيمتُهُ ثلاثةُ آلافِ ليرةٍ سورية آنذاك. أي بِما يُعادل ألفًا وأربعمئة وستين دولارًا.

وتابعَ التَّاجرُ:

-وهناكَ معروفٌ آخر قدَّمَهُ لنا هذا الرَّجلُ الكريمُ الطَّيِّبُ.

سألَ الكاتبُ:

-ما هو؟

-بعدَ أن سلَّمنا بِضاعته، جاء معنا إلى جميعِ الأسواقِ الشَّعبيَّةِ، وأمَّن لنا مكانه السَّابقَ لِنعرض بضائِعنا فيه، وبرأيي هذا شيءٌ يفوقُ النُّبلَ والأصلَ الَّذي يتميَّزُ به المرءُ في هذهِ الأيامِ.

جدَّدَ الكاتِبُ سؤالَهُ:

-وباشرتُم بالعمل بعدَها؟

-نعم. ثُمَّ باشرنا العملَ.

فقالَ الكاتبُ:

-لقد نسيتُ شيئًا مهمًا دعني أُذكِّرك به.

سألَهُ التَّاجرُ هذه المرَّة:

-ما هذا الشَّيءُ المهمُّ؟

-أرباحُك في السَّنةِ الأولى بالجملة والمفرَّق.

-سؤالٌ مهمٌّ جدًّا.

وتابعَ التَّاجِرُ:

-في السَّنةِ الأولى عملتُ جردًا بنهايةِ السَّنةِ، وكانت الأرباحُ قد بلغت تسعمئةٍ وخمسينَ ألفًا أي بما يُعادل تسعةَ عشرَ ألفِ دولارٍ.

-ما شاءَ اللهُ لقد حطَّمتَ رقمًا قياسيًّا برأسمالٍ بسيطٍ وبزمنٍ قصيرٍ جدًّا.

-كُلُّ الشُّكرِ لك.

وسألَ الكاتبُ:

-وفي السَّنةِ الثَّانيةِ. كم كانت نسبةُ الأرباحِ الَّتي وصلت إليها بِنهايةِ ذلك العامِ.

أجابَ التَّاجرُ الخبيرُ:

-طبعًا كانت في ازديادٍ، استنادًا إلى قانونِ الاستثمارِ، فكلَّما زادَ رأسُ المالِ زادت قيمةُ الأرباحِ، دعني أُذكِّرك عندَما بدأت كان رأسمالي قليلاً جدًا لا يتعدى مئتي ألفٍ فكيفَ بلغَ حافة المليونِ.

-تباركَ الله.. تباركَ الله.

توقَّفَ الحديثُ.

ومع تلاحقِ الأعوامِ، والنَّجاحِ الدَّائم بدأتُ بأزمة منتصفِ العمرِ. في البدايةِ كنتُ أقولُ كيفَ يملكُ النَّاسُ السَّياراتِ والمحال والعماراتِ، إنَّه لشيءٌ عجيبٌ حقًا، ولكنَّني معَ مرورِ الوقتِ. امتلكتُ كلَّ شيءٍ، فلم أحسَّ بقيمتها بعدَ ذلك. عندما أذهبُ إلى المحلِّ والمستودعِ المملوءِ بأصنافِ البضائعِ المُختلِفة، لم أكُن أشعرُ أنَّها ملكي، وعندما أنهي عملي وآتي إلى البيت كنتُ أشعرُ أنَّهُ ليس بيتي، وكانَ ينتابني إحساسٌ غريبٌ كالمُسافرِ الَّذي تحجزُ لَهُ غُرفةٌ بِفندقٍ، وحتَّى السَّيارةُ ما كنتُ أُطيقُها، فلم أتعلَّم القيادة وأرى أنَّها شيءٌ تافهٌ معَ العلمِ أنَّ أغلبَ النَّاسِ يحبّونَ قيادةَ السَّياراتِ. لقد بدأتِ الكآبةُ والملَلُ يتسربانِ إلى حياتي كتاجرٍ مُتمكِّنٍ، وفي لحظةٍ مِنَ اللَّحظاتِ جاءتني فكرةٌ كانت من نوعٍ غريبٍ بعضَ الشَّيءِ، وسألتُ نفسي ولماذا لا أقرأُ كتبَ الاقتصادِ والنَّظرياتِ الاقتصاديَّةِ وجميعِ اقتصاديَّاتِ الدُّولِ

القويَّةِ! ووقعتُ بِفخِّ القراءةِ، ثُمَّ مارستُ تلك الهوايةِ لمدَّةِ سنةٍ كاملةٍ، وتعلَّمتُ كثيرًا من تلكَ النَّظرياتِ الاقتصاديَّةِ المُملَّةِ، ولُغة الحساباتِ والأرقامِ الجافَّةِ، وذاتَ يومٍ قرأتُ إحدى كتبِ الأدبِ، ثُمَّ تغيَّرت حياتي بعدَها، وقسَّمتُ حياتي ما بينَ شخصيَّةِ التَّاجرِ وشخصيَّةِ الكاتبِ الدَّخيلةِ عليها. لقد انتهيتُ من السَّردِ وسأكتفي بهذا القدرِ مِنَ الحديثِ.

فقالَ التَّاجرُ:

-هل من سؤالٍ؟

ردَّ عليه الكاتبُ:

-نعمْ.

- اسأل.

-بما أنَّ أغلبَ زبائنك مِنَ النِّساءِ ماذا عرفتَ عنهنَّ؟

-عرفتُ أنَّ المرأةَ مهما كانت صغيرةً بالعمرِ، فإنَّها تختارُ لها رجُلًا أكبرَ منها بعشرين عامًا، أو حتَّى خمسة وعشرين عامًا؛ لأنَّهُ يمتلكُ مالًا فقط.

وقالَّ التَّاجرُ دعني اسألك أنا هذه المرَّة:

-تفضل.

-دعنا نعكس السُّؤالَ.

-كيفَ؟

-وكيف يكون اختيارُ الرَّجُلِ للمرأة كشريكةٍ لَهُ للزَّواجِ طبعًا؟

-الرَّجلُ يختارُ المرأةَ على أساسِ المظهرِ الخارجيِّ، أي الشَّكل.

-تقصدُ البروفايل.

-نعم. هذا ما أقصدهُ.

وتابعَ الكاتبُ:

-في بلدنا مهما كانت شهادةُ الرَّجلِ، إذا كان دكتورًا أو بروفسورًا أو عالمًا يختارُ شريكةَ حياتِهِ على أُسس الجمالِ والجاذبيَّةِ والقوامِ الرَّشيقِ.

سألَ التَّاجرُ:

-دعني أسألك.

-اسأل.

-هل أنتَ كذلك؟

-تُريدُ الصَّراحةَ.

-أجلْ.

- أنا أيضًا اخترْتُ على أساسِ الشَّكلِ الخارجيِّ.

ضحِك التَّاجِرُ أخيرًا فقالَ:

-نحنُ مُتشابهانِ.

ضحِك الكاتبُ أيضًا وردَّ عليهِ:

-لا تقُل أنتَ أنا وأنا أنت.

-هذا ما كُنتُ سأقولُهُ لكَ.

-لُعبتنا مكشوفةٌ.

-مكشوفةٌ منذُ البدايةِ.

سألَ الكاتبُ مُجدَّدًا:

-ماهي حِكمةُ العصرِ الحديثِ يا صديقي التَّاجر؟

أجابَ التَّاجرُ:

-حِكمةُ العصرِ الحديثِ تقولُ: إنَّ المالَ هو الهيمنةُ وهو يفرضُ سلطانَهُ ونفوذَهُ بِقوَّةٍ على إدارة عالمِنا المُعاصرِ.

ونظرَ التَّاجرُ نظرةَ تضرُّعٍ إلى مُدير الحوارِ؛ الكاتبِ عبد الغفار عيد، ففهم هذا ما كانَ يشغلُ ذهنَ التَّاجرِ الخائفِ؛ فقالَ الكاتبُ أخيرًا:

-صديقي هذه كافيتريا التَّصفيةِ وليستْ لُعبةً نلعبها، حيثُ لا يمكن أن يخرُج منها إلَّا واحدٌ منَّا بالنَّهايةِ، والأخيرُ سيجلس وحيدًا بهذه الكافيتريا، وسيكتبُ مُذكَّراتِهِ، وما إن ينتهي منها سيخرجُ ولنْ يعودَ إليها أبداً.

لا نِقاشَ حسبَ الاتِّفاقِ.

كانت طلقةٌ واحدةٌ كافيةً أن تنهيَ حياةً كاملةً عاشَها التَّاجرُ، وأنهت بذلك الاجتماعَ الدَّائرَ آنذاك.

الفصلُ الخامسُ

عبد الغفَّار عيد

عُقِدَ الاجتماعُ الرَّابعُ بِكافيتريا التَّصفيةِ خاتمةُ الاجتماعاتِ السَّابقةِ بتاريخ 23 أبريل (نيسان)، ولكنْ هذه المرَّة بِحضور الكاتبِ عبدِ الغفَّار عيد فقط، وقد جاءَ إلى هناك حسبَ اتِّفاقٍ سابقٍ. لقد حضر خصيصًا من أجلِ أن يكتبَ مُذكَّراتهِ على هذهِ الطَّاولةِ الَّتي يجلسُ عليها الآنَ، وطلب كأسًا من كوكتيلِ الفواكهِ، لأنَّهُ لم يذقْ بعدُ قطرةً واحدةً مِنَ المُنكرِ؛ لِذا فهو لا يعرِفُ ما سيُخبئهُ لَهُ القدرُ بِما هو آتٍ مِنَ الأيامِ اللَّاحقةِ، ثُمَّ أخرج من حقيبتهِ اليدويَّةِ ذاتِ اللَّونِ الأسودِ كُراسةً بغِلافٍ سميكٍ بُنيِّ اللَّونِ، وقلماً أزرقَ مِنَ النَّوعِ الرَّديء، وما أن استقرَّ في جلستهِ بدا مُنهمِكًا في الكتابةِ. فلا ضرورةَ للخوضِ في سردِ أحداثِ الماضي، فهو معروفٌ لكمْ لأنَّ ماضيه مبنيٌّ على حياةِ ثلاثةِ أشخاصٍ آخرينَ كانوا معَهُ داخلَ كيانِهِ الواحد. وقد مارسوا مُهنًا مُختلِفةً

ضمنَ هذا الإطارِ المغلقِ، وكانَ لِكلِّ واحدٍ من هؤلاءِ الأشخاصِ الأربعةِ فترةٌ زمنيَّةٌ ابتدأ بها أحداث حياتِهِ اليوميَّةِ، حتَّى وصل إلى ما هو عليهِ الآن. هذه جلسةُ الكاتبِ التي سيقومُ فيها بِتدوينِ مُذكراتِهِ على دفترِهِ الخاصِّ.

وبدأ كاتِبُنا بالكتابةِ.

جاءَ يومٌ وقعتُ فيه بحُبِّ قراءةِ الرِّواياتِ العالميَّةِ المُترجِمةِ، وبدأ شغفي لقراءتها يزدادُ يومًا بعدَ يومٍ، ولكنَّ القراءةَ لم تكُن حتَّى ذلك الوقتِ إلَّا سبيلًا للتَّسليةِ والاستمتاعِ لملءِ وقتِ فراغي. ومعَ توالي الأيامِ والأشهرِ والسَّنواتِ، وتراكمِ عددٍ لا بأسَ بهِ مِنَ الرِّواياتِ الَّتي قرأتُها، جذبتني في النِّهايةِ فكرةُ أن أُجربَ بنفسي كتابةَ روايةٍ. أقولُ بيني وبينَ نفسي، بأيِّ شيءٍ هؤلاءِ الكُتَّابُ أفضلُ منِّي؟، ولا أُخفي عليكم إنَّهُ لم يُعلِّمني أحدٌ كتابةَ روايةٍ. وذاتَ يوم كان تصميمي على البدءِ قد وصلَ إلى أعلى ذروتِه. ولا تراجعَ عن ذلكَ مهما كانَ حجمُ التَّضحياتِ، وبتصميمٍ جادٍّ وعزيمةٍ لا تُقهرُ بدأتُ بالكتابةِ، شيءٌ يهتفُ بداخلي

أن أخطوَ الخطوةَ الأولى نحو الأمامِ. جعلتُ من ذلكَ الأمرِ قرارًا مصيريًّا، لا يمكنني النُّكوصُ بعد ذلكَ، وكانَ موعدُ كتابةِ الرِّوايةِ يبدأُ من ساعاتِ المساءِ، ويستمرُّ حتى الثَّالثة فجرًا أحيانًا، دون أن أشعرَ بالوقتِ وهو يمرُّ سريعًا، وفي بعضِ الأحيان تبلغُ السَّاعةُ الرَّابعةَ صباحًا، وكانت رغبتي بالكتابة تزدادُ مثلَ تأجُّجِ نارٍ تضطرِمُ بداخلي مع تواصلِ ساعاتِ العملِ الممتعِ، وكان مُعلمي في كتابة الرواية هُم كُتَّابُ الرِّوايات الَّتي كنتُ أقرأها في كلِّ يومٍ، وكانَ لِكلِّ واحدٍ من هؤلاءِ أسلوبٌ خاصٌّ به يُميِّزُهُ عن الآخرين. وتعلَّمتُ من كلِّ كاتبٍ شيئًا يُفيدني في الكتابةِ، وبعدَ سنةٍ كاملةٍ مِنَ التَّعبِ، والجهدِ، وسهرِ اللَّيالي المتواصلةِ، والإرادةِ الصَّلبةِ الَّتي لا تلينُ، خرجَتْ روايتي مدونةً على كُراسٍ صغيرٍ لا يتعدى المئةَ صفحةٍ، وعندما كنتُ أقرؤها مِنَ البدايةِ حتَّى النِّهايةِ، كانت تملؤني نشوةٌ عجيبةٌ، لا يعلمُ بها غيرُ اللهِ، حيثُ أرى فيها إنجازًا عظيمًا. وهو أفضلُ من كُلِّ ما حقَّقتُهُ مِن مكاسبَ

ومرابحَ في صولاتِ وجولاتِ ميدانِ التِّجارةِ على مدى تلكَ السَّنواتِ الَّتي أمضيتُها من عُمري في سبيلِ تكديسِ المالِ.

انتهيتُ من الكتابة، وهذا لا يعني شيئًا بالنسبةِ لِما مررتُ به لاحقًا، وهذه ليست المرحلةَ الأخيرةَ لكي تظهرَ روايتكَ وتُبصرَ النَّور. هُناك مراحلُ أُخرى يجبُ القيامُ بها، وهي كتابتُها إلكترونيًّا. وقد يلزمُني حاسوبٌ وفيه برنامجُ وورد للكتابةِ. يجب أنْ أتعلَّمَ هذا العملَ بنفسي، وكان عندي دافعٌ قويٌّ لكي أذهبَ إلى أحدِ الأصدقاءِ ليُعلِّمني الكتابةَ، وبعد أن تعلَّمتُ بدأتُ أكتبُ روايتي بنفسي في كُلِّ يومٍ، وفي الأيام الأولى وجدتُ صعوبةً قصوى، وكانَ الوقتُ ينفدُ منِّي سريعًا حينَ أبحثُ عن المفاتيحِ ومكانِ الحروفِ المدونةِ عليها، والَّتي كنتُ لا أجِدُها بِسهولةٍ. كنتُ أبذلُ جُهدًا ووقتًا كبيرين في ذلك. إلَّا أنَّ ذلك لم يمنعني منَ الاستمرارِ الدَّائمِ العملِ الدَّؤوب في مجال تدوينِ الرِّوايةِ إلكترونيًّا، ومعَ الأيامِ والتَّمرينِ، أصبحتُ مُتمرِّسًا في الكتابةِ الحاسوبيَّةِ، وبعدها لاحظتُ أنَّ الجهدَ المبذولَ والوقتَ يتقلصانِ

معًا تدريجيًّا شيئًا فشيئًا، حيثُ أحسستُ بسحابةٍ عابرةٍ مِنَ الرَّاحةِ النَّفسيَّةِ لم تدُم طويلًا. كما يقولون إنَّ ساعاتِ السَّعادةِ معدوداتٌ وينتهي مفعولها في الحالِ، حتَّى ذلك الوقت كُنتُ أذهبُ في الصَّباحِ إلى عملي بِصفتي تاجراً، وبعد مُضيِّ أكثرِ من خمسةِ أشهُرٍ، حيثُ كانت روايتي جاهزةً على برنامجِ وورد المُخصَّصِ للكتابة، وذاتَ أمسيةٍ انتهيت من التَّدوين، ولكن حلَّت بي كارثةٌ حقيقيَّةٌ سأذكرُها توًّا، وكادت تنهي حياتي. سبحانَ الله حصلَ ذلكَ بِنفسِ اليومِ الَّذي انتهيتُ من الكتابةِ على الحاسوبِ. تصوَّروا مدى الحماقةِ الَّتي ارتكبتُها بحقِّ نفسي. قُمتُ بِحرقِ كُراسي الصَّغيرِ، الَّذي كان مخطوطةَ الرِّوايةِ، وأقولها ثانيةً وثالثةً ورابعةً حتَّى أصِلَ فيها إلى الألفِ، أو بالأحرى إلى الملايينِ. كانَ ذلكَ العملُ عائدًا إلى سذاجتي وبساطتي ككاتبٍ مبتدئٍ، ولم أكُن أعرِفُ ما الَّذي سيحصل بعد ذلك. كان في اعتقادي أنَّني لن أحتاجَ إلى مخطوطةِ الرِّوايةِ الَّتي كتبتُها بِقلمِ الرَّصاصِ، ولن أكون بحاجة إليها أبدًا طالما أصبحتْ مُدونة بالكاملِ على برنامج وورد، وفي مساءِ اليومِ

التَّالي أخرجتُ حاسوبي المحمولَ من حقيبتهِ الجلديَّةِ السَّوداءِ. وقد كنتُ مُغتبطًا بِشكلٍ لا يوصف، وكأن فرحتي ضاهت فرحةَ القائدِ العظيمِ نابليون بونابرت عندما كانَ ينتصرُ على أعدائه في معاركِهِ التَّاريخيَّةِ. ها أنا بدأتُ مِنَ الصِّفرِ أو مِنَ العدمِ من لا شيء، وكتبتُ روايةً ستحملُ على غلافها السَّميكِ عمَّا قريبٍ اسمي بالخطِّ العريضِ، مثلَ جميعِ هؤلاءِ الكُتَّابِ المشهورينَ الَّذين ستخلِّدُ صفحاتُ التَّاريخِ ذكراهم العطِرةَ إلى الأبدِ.

فتحتُ ملفَ الوورد الَّذي يحتوي على روايتي، والآن جاء دورُ المرحلةِ الحاسمةِ والَّتي سأقوم فيها بإرسالها إلى مُختصٍّ أو إلى أحدِ المُدقِّقينَ اللُّغويينَ، أو يمكنني إرسالها إلى إحدى دورِ النَّشرِ للتَّدقيقِ والطِّباعةِ. وهم يتولَّون بِدورهم هذهِ المسائلِ الَّتي أتحدثُ عنها الآن، وقد بدأتُ بعدَّةِ خطواتٍ تعلَّمتُها كما قُلتُ سابقًا من صديقي، بالنَّهايةِ ظهرتْ قائمةٌ على الشَّاشةِ بِثلاثِ كلِماتٍ وهي (حفظ، تجاهُل، عدم الحفظ)، ولكن ما الَّذي جرى معي، من اللَّهفةِ والفرحة الزَّائدةِ، فقدتُ الوعي تمامًا وكأنَّ غشاوةً سوداءَ

قد أعمتني عَنِ الرُّؤيةِ وأنا أُشاهدُ الكلماتِ الثَّلاثِ الَّتي كانت تتراقصُ أمامي لكي تُشاركُني فرحتي أيضًا ضغطتُ على عدم الحفظِ، وطارت الرِّوايةُ معَ مهبِّ الرِّيحِ دونَ رجعةٍ. بحثتُ سريعًا في صفحةِ الكتابةِ، لم أعثر على شيء في الصَّفحةِ غير الثَّلجِ الأبيضِ النَّاصعِ الَّذي يلمعُ تحت ضوءِ الشَّاشةِ المبهرِ، ولم أجد تلك الكلماتِ السَّوداءَ على تلك الصَّفحاتِ البيضاءِ، زالت كُلُّ شكوكي لحظتها، وأدركتُ أخيرًا أنَّني بِعملي هذا ارتكبتُ خطأً قاتلًا، لن يُفيدني النَّدمُ أبدًا. فأنا الملومُ بالنِّهاية، لقد نسيتُ تمامًا خطواتِ تحويلِ الملفِ الَّتي علَّمني إياها صديقي قبل أنْ أبدأَ بالكتابةِ من وورد إلى ملف. إلَّا أنَّ الشَّوقَ غلَّابٌ، وما قُمتُ به، للأسفِ، كان عملًا أخرقَ تمامًا. لا يستحقُ أن يتناقشَ فيه اثنانِ، فطارت روايتي دونَ أن أرى لها أثرًا فيما بعد. كانَ المفروض أن أتريث يومًا آخرَ، فأذهبُ إلى صديقي المُعلِّم ويقوم هو بعمليَّةِ التَّحويلِ لأنَّهُ أفضل من تلميذٍ غرٍّ مثلي بهذا المجال. وفي الحال خيمت عليَّ غيمةٌ قاتمةٌ من الخيبةِ ولم يبقَ لدي أملٌ، بعد ما اختفت

روايتي عَنِ الوجودِ، وأحرقتُ قبلها مركبي الوحيدَ الَّذي كنتُ سأستعينُ بهِ في وقت الشِّدَّةِ وأخوضُ لُجج المياه الصَّاخبةِ في عمليَّةِ الرُّجوعِ؛ لتنزعني على الأقلِّ من بين براثِن موتٍ مُحَقَّق، كانَ قابَ قوسينِ أو أدنى منِّي.

رجعتُ بِجسمي كُلِّهِ على مسندِ الكرسيِّ الَّذي كنتُ جالسًا عليه، وأمامي الحاسوبُ المفتوحُ على صفحةِ برنامج الوورد الفارغةِ. شعرتُ بِحلقةٍ من نارٍ تدورُ في حلقي الجافِّ، أتبعهُ على الفور صُداعٌ كالبرقِ لمعَ برأسي، وصحبتها موجةٌ قويَّةٌ من تشنجاتٍ هوجاءٍ هجمتْ على صدري من جِهةِ اليسارِ، واستمرَّ ذلك لعدَّةِ دقائق. فقُلتُ في نفسي لقد جاءت نهايتي تزامُنًا معَ المصيرِ الَّذي آلت إليه روايتي، ولو لم أدركِ الخطرَ الَّذي سيلحقُ بي لحظتها، والقرارَ الحاسمَ الَّذي اتَّخذته فورًا، كنتُ سأموتُ لا محالةَ، وهذه كانت نتيجةٌ حتميَّةٌ لِما آلَ إليهِ وضعي. فلولا إرادتي القويَّةُ كالفولاذ، لما كنتُ حيًّا الآنَ، وكانَ قراري هو التَّعهُّدُ على نفسي أنْ أقومَ مرَّةً أُخرى بِكتابةِ روايتي السَّابقةِ والَّتي اختفت عن

الوجود بِلمحةِ بصرٍ نتيجةَ هفوةٍ منِّي، ولو استمرَّتِ الكتابةُ عامًا كامِلًا، فلن أتراجعَ عن كتابتها قيدَ أُنملةٍ، ولكن هناك مُلاحظة مهمَّةٌ جدًا يجب ألَّا أغفلَ عنها، وهي أن أحتفظَ بالكُرَّاسِ الَّذي سأكتبُ عليه الرِّوايةِ، وعليَّ الاحتفاظ به إلى آخرِ العُمرِ، وبهذه الأمنيات أقنعتُ نفسي للخروج مِنَ الأزمةِ الَّتي وقعتُ فيها، والَّتي كِدتُ أن أفقِدَ حياتي بسببها. سبحانَ الله فالواحِدُ منَّا لا يعلم ما يُخبِّئه له القدر، إذ إنَّ لحظات الفرح والسَّعادة يُمكنها أن تنقلِبُ فجأةً إلى حُزنٍ وتعاسةٍ. لقد بدأت أنشجُ وأبكي بِحُرقةٍ لمدَّةِ ساعةٍ كاملةٍ لكي أرتاحَ بسببِ ضياعِ تلك الرِّواية الَّتي افتقدتُها.

بقيتُ سنةً أُخرى أكتبُ روايتي من جديد، وبعدَ أن انتهيتُ من كِتابتها احتفظتُ بالمخطوطةِ، وكانت مهنةُ الكتابةِ جديدةً عليَّ لا أعرفُ كيف سأتصرَّفُ، لأنَّني لستُ سوى تاجرٍ يتقنُ لُغةَ الأرقامِ والحسابات فقط، ثُمَّ أعطيتُ روايتي الجديدةَ الَّتي ولِدت من رحمِ المُعاناةِ إلى قريبٍ لي كان يعملُ بِمجالِ

الكِتابةِ، وطالت غفوةُ تلك الرِّوايةِ في خزانةِ بيتهِ أكثر من ثلاثةِ أشهرٍ تقريبًا. كنتُ أرى في أحلامي خلال تلكِ الفترةِ أنَّ روايتي كانت تُناديني مُستنجِدةً إيايَ بِأعلى صوت لها: أنقذني يا عيد أنقذني يا عيد أنقذني يا عيد وكدت أَختنق هنا. وبعد هذا الحلمِ الفظيعِ تحلَّيتُ بجرعةٍ إضافيةٍ مِنَ الشَّجاعةِ وفي صباح اليومِ التَّالي هرعتُ باكرًا إلى بيتِ قريبي وحرَّرتُ روايتي مِن وكرِ العِصابةِ الَّتي كانت تحتفِظُ بها لمدة ثلاثةِ أشهرٍ أو ربَّما كانَ أكثرَ من ذلك، وبعدَ تلكَ التَّجربةِ المريرةِ في حبسِ الرِّوايةِ عندَ ذلكَ الرَّجلِ، فهمتُ درسًا جيِّدًا بهذهِ الحياةِ الَّتي نعيشُها، إذا ما كُنت ناجحًا حسدَكَ النَّاسُ، وإذا ما كُنتَ فاشِلًا احتقرَكَ النَّاسُ. لقد سحبتُ روايتي نهائيًّا من قريبي الَّذي لم يمسها لا من قريبٍ ولا من بعيدٍ وأصبحت تنامُ في حُضني قريرةَ العينِ هانئةَ البالِ، وتغيَّرت بعدها أحلامي إلى بهجةٍ وسرورٍ، ذاتِ يومٍ تذكَّرتُ صديقًا قديمًا لي، ولكن كانَ حبلُ الاتِّصالِ مقطوعًا فيما بيننا منذُ زمنٍ بعيدٍ، وكانَ هذا الصَّديقُ البعيدُ يكتبُ مجموعةً من قصصٍ قصيرةٍ، وكان مُعلِّمًا

للُّغةِ العربيَّةِ، ولم يكُن لديَّ رقمُ الأستاذِ لكي أتَّصِلَ بهِ، وأبشِّره بِأنني كتبتُ أوَّلَ روايةٍ في حياتي، على أملِ أن نجدِّدَ صداقتنا المُتجمدةَ من جديدٍ ونُصبحَ أصدقاءَ في مهنةِ الكتابةِ. سألتُ بعضَ أصدقائنا المُشتَركين الَّذين ما زالوا موجودين بالبلد هل الأستاذُ موجودٌ هنا، لأنَّ ما أعرفُهُ عنه أنَّهُ كانَ يُحبُّ السَّفرَ كثيرًا، فأكَّدوا لي أنَّهُ خارجَ البلدِ الآنَ. لقد صدق حدسي في ذلكَ، ولكنني لفترة طويلة جدًا اشتغلتُ بتجارةِ الأواني المنزليَّة، وأهملتُ معها كُلَّ أصدقائي السَّابقينَ، وصارَ لي أصدقاءُ جُدد في نفسِ المجالِ الَّذي عملتُ بهِ، فكانَ انقطاعُ أخبارِهِ عنِّي شيئًا طبيعيًّا، وليس فيما بيننا خلافٌ قطُّ، وكنتُ أكُنُّ له الحبَّ والمودَّةَ بِشكلٍ لا يوصف، وحصلتُ على رقمهِ أخيرًا، لا أخفي ما شعرتُ بهِ من غبطةٍ لحظتها. منَّيتُ نفسي اليومَ بأنَّني سأنامُ قريرَ العينِ، وأخيرًا جاءت لحظةُ الفرجِ الَّتي كنتُ أتمنَّاها من كُلِّ قلبي، وأرى أنَّ صديقي الأستاذ لن يُخيِّبَ لي رجاءً، وسيخدمُني قدرَ الإمكانِ لُغويًّا بتدقيقِ روايتي الَّتي انتظرتُ كثيرًا لتكونَ جاهزةً للنَّشرِ، وفي تلك اللَّيلةِ

راودتني أحلامٌ ورديَّةٌ، كنتُ أتأبطُ كدسًا لابأس بهِا من روايتي المطبوعةِ، وهناكَ لفيفٌ من الأصدقاءِ والمعارفِ يحيطونَ بي، وأنا أُهديهم النُّسخةَ الأولى من روايتي المطبوعةِ، وكان لا يزالُ حبرُ كلِماتها طازجاً، وأنا أخطُّ بِفخرٍ واعتزازٍ كلماتِ الإهداءِ وأوقِّعها باسمي مع تاريخِ اليومِ، كان هذا هو حلمي الأوَّل لتلكَ اللَّيلةِ الَّتي حصلتُ فيها على رقمِ صديقي الأستاذِ مُدقِّقِ اللُّغةِ العربيَّةِ وكاتبِ القصصِ القصيرةِ، ثُمَّ رأيت بعده حُلمًا كان أشدُ فظاعةً وهولًا. هو نقيضُ الحلمِ الأوَّل الَّذي رأيته في بدايةِ نومي، وأنا أحملُ مخطوطةَ روايتي غيرِ المُدقَّقةِ لُغويًّا، وأنا أبكي واقفًا بِمكان مُقفرٍ، فلا شيءَ سوى كُثبانٍ رمليَّةٍ وبعضٍ مِنَ النَّباتاتِ الصَّحراويَّةِ الَّتي تُقاوِمُ العيشَ في ظروفِ الطقسِ الجافِّ، وكانت أشِعةُ الشَّمسِ اللَّاهِبةِ تتدفَّقُ حِممًا بُركانيَّةً وتُصبُّ مباشرةً على رأسي الحاسرِ، وعلى هذا المنوالِ. لقد أنهيتُ ليلتي وسط دواماتِ أحلامٍ مُجهِدةٍ ما إن ينتهي أحدها ويتوقف، حتى يبدأ الآخر بالظُّهورِ لِيحلَّ محله، ويبدأ في العمل من جديد. استيقظتُ باكِرًا

بِذلكَ اليوم، ولكنِّي كُنتُ أشعرُ بِصُداعٍ شديدٍ آلمَ رأسي. نظرتُ مليًّا إلى المرآةِ الَّتي كانت تتوسَّطُ الحائطَ، فكانت عيناي مُحمرتينِ كجمرتين مُشتعِلتين وسطَ صفحةِ وجهي الشَّاحبِ، وتذكَّرتُ ليلتي الكئيبةَ وأنا وسط تلك الأحلامِ الكثيفةِ. بعدها توجَّهتُ إلى الحمامُ، إلى طقسِ النَّظافة اليوميِّ، وأنا ألتزِمُ به منذ أكثر مِن ثلاثينَ عامًا على التَّقريبِ. لقد دُعيتُ على الفطورِ صباحَ ذلكَ اليومِ، فرفضتُ بسببِ فقدانِ شهيتي للطَّعامِ، أعرفُ أنَّ نفسي صُدت عن الأكل إثرَ مجموعةِ الأحلامِ المُزعجةِ منذُ ليلةِ أمس. كنتُ كصفيحِ خُبزٍ ساخنٍ على النَّارِ. لقد أمضيتُ ما تبقَّى من وقتي بِصعوبةٍ بالغةٍ، حتَّى بلغتِ السَّاعةُ العاشرةَ والنِّصفَ صباحًا، وقد حسبتُ فرقَ الوقتِ، وقلتُ في نفسي إنَّه يقظُ الآنَ. هيا حانَ وقتُ الاتِّصال بِهِ، فإنَّ السَّاعةَ آتيةٌ لاريبَ فيها، وبِأوَّلِ رنَّةِ اتِّصال ردَّ المُدقِّقُ اللُّغويُّ، أملي ورجائي بهذهِ الدِّنيا، مُنقذُ نفسي من غرقٍ محتومٍ وسطَ بحرٍ هائجٍ ومائجٍ.

-ألو. مَنْ يتَّصلُ؟

-ألم تعرفْني؟

-لا.

-ولا من نبرةِ صوتي؟

حقيقةً خفتُ أنْ أُطيلَ عليهِ بالكلامِ، وأنْ أدعهُ يُخمن من أنا. فسارعتُ بالإفصاحِ عن اسمي لمدقِّقِ اللُّغةِ العربيَّةِ، خوفًا من أن يقفلَ الخطَّ بوجهي، فيُحرمني من متعةِ تدقيقِ روايتي لأنَّها أوَّلُ تجربةٍ لي بِمجالِ الكتابةِ، فقلتُ للمُدقِّقِ:

-أنا صديقُك عبد الغفَّار عيد. ألا تتذكَّرني؟

-أهلًا عيد.

-كيف حالُكَ أُستاذُنا؟

-بخيرٍ.

-وأنتَ؟

-وأنا أيضًا بخيرٍ.

حمدًا لله إنَّ الرَّجلَ عرفني، وبادلني أيضًا بالسُّؤالِ عن أحوالي وهذا الشَّيءُ شجَّعني كثيرًا، أن أُفاتحَهُ الحديث حولَ تدقيقِ روايتي، ولكنْ بعد ضغطٍ نفسيٍ هائلٍ. أفصحتُ لَهُ عمَّا يجيشُ في صدري، فقلتُ لَهُ:

-لقد كتبتُ روايةً.

ظل صامتًا لفترةٍ، ولم يردَّ عليَّ، ثُم قلتُ للمرَّةِ الثَّانية:

-عندي روايةٌ أدبيَّةٌ، وأريدُ منك تدقيقها لغويًّا.

أجابَ مُتعجِبًا:

-أنتَ أم غيرُكَ؟

أكَّدتُ لَهُ:

-أنا وليسَ غيري.

-إم.

(إم) فقط، وكأَنَّهُ لا يصدِّقُ ما سمعتْ أذناه، كانَ من المفروضِ أنْ يقولَ شيئًا آخرَ غيرَ هذهِ الـ/ إم/ ، كأنْ يقولُ: أحسنتَ، على سبيلِ المِثال، أو ما شاءَ اللهُ، لا شيءَ من ذلكَ صدرَ عَنِ الرَّجلِ الَّذي أتحدثُ إليهِ. لقد نبَّهني حدسي أنَّهُ غير مُتحمِّسٍ بشأنِ الرِّوايةِ. والَّذي حصلَ معي بعدَ انقطاعِ الاتِّصالِ فيما بيننا، أنا الَّذي عرضتُ عليه أن أرسلَ روايتي لَهُ، أكثرَ اللهُ خيرَهُ، حيثُ أبدى استعدادَهُ أن يقبلها، وما تبقَّى مِنَ الأيامِ الَّتي تلتْ ذلكَ، وأنا أترقَّبُ بشوقٍ ولهفةٍ تلكَ اللَّحظةِ الَّتي سيقولُ لي صديقي العزيزُ مُدقِّقُ اللُّغةِ الَّذي يعملُ بجدٍ ونشاطٍ لإنجازِها في أقلِّ وقتٍ مُمكنٍ، وكانت هذهِ أمنياتي بِكلِّ دقيقةٍ تمرُّ عليَّ وأنا أنتظرُ على أحرَّ مِنَ الجمرِ. لقد مضى الأسبوعُ الأوَّل وأنا أترقَّبُ بِفارغِ الصَّبرِ أنظرُ إلى شاشةِ الخليويِّ، فلا اتِّصالَ ولا شيءَ قد يطمئنني على الأقلِّ بأَنَّهُ يدقِّقُ الرِّاويةِ. ومضى الأسبوعُ الثَّاني ولم أتلقَّ من أستاذِ اللُّغةِ العربيَّةِ جوابًا. لقد مضى شهرٌ كاملٌ ولم أتلقَّ أيَّ اتِّصالٍ بشأنِ تدقيقِ الرِّوايةِ، بدأ القلقُ والشَّكُّ يدفعاني إلى أنْ أتَّصلَ

بالأستاذِ، وبعدَ السَّلامِ والسُّؤالِ عَنِ الأحوالِ تطرَّقنا إلى موضوعِنا الأساسيِّ.

فقال صديقي المُدقِّقُ:

-قرأتُ روايتَك.

أجبتهُ وأنا أحبِسُ أنفاسي:

-ما رأيك فيها؟

-تريدُ الصَّراحةَ.

-أجلْ.

-دعني أكونُ صريحًا معكَ. إنَّها رديئةٌ جدًّا، وأسلوبُكَ بالسَّردِ ضعيفٌ جدًّا، فأنتَ تفتقرُ إلى أدنى المُقوماتِ الَّتي تجعلُ منك كاتبًا، ومن الأفضلِ أن تتريثَ لفترةٍ أطولَ، حتَّى تتمكَّنَ من تقديمِ روايةٍ أفضلَ بكثيرٍ من هذهِ.

قُلتُ لَهُ:

-أشكرُكَ جزيلَ الشُّكرِ على هذهِ النَّصيحةِ الَّتي لا تُقدَّرُ بِثمنٍ يا أستاذُ. دائمًا علينا أن نأخُذَ برأي أهلِ الاختصاصِ ومشورتهم، فهُم يعرفونَ أينَ تكمنُ مصلحتُنا.

فور أن أنهيتُ الحديثَ معَهُ، قطعتُ الاتِّصالَ فيما بيننا؛ لأنَّني ما عُدتُ أطيقُ أنْ أسمعَ منه حرفًا واحدًا، ثُم حذفتُ رقمه من عندي وإلى الأبد. لقد أسعفَتني ذاكرتي بقصَّةٍ مُفيدةٍ تنطبقُ على نصيحة هذا العبقريِّ اللُّغويِّ. لقد كلَّف أحد أساتِذةِ الجامعاتِ في درسِ الحصَّةِ العمليَّةِ بصنعِ مزهرياتٍ مِن عجينِ الفخَّارِ، حيثُ قسَم طلابَهُ إلى مجموعتين فئة تُدعى (أ) وفِئة تُدعى (ب)، واتَّفقت فِئة (أ) من الطُّلابِ المُختبرين على رأي وهو أن يقوموا معًا بِصنع مزهريَّةٍ واحدةٍ فقط لا غير، ثُمَّ استغرقَ واجبُ صنعِ مزهريَّةِ الفخَّارِ من الوقتِ كاملَ الدَّوامِ حتَّى انتهاءِ الدَّرسِ. أمَّا الفِئةُ (ب) من الطَّلابِ اتَّفقوا جميعًا على أن يصنعوا عددًا لا نهائيًّا مِن مزهرياتِ الفخَّارِ خلال مدَّةِ الحصَّةِ كاملةً. فلنرَ ما كانت النَّتيجةُ النِّهائيَّةُ لِكلا الفريقين المُتنافسينِ خلالَ ذلكَ الواجبِ الَّذي كلفهُما

به أستاذُ الجامعةِ. بالطَّبعِ كانَ الفوزُ من نصيبِ المجوعةِ (ب) لأنَّهم بذلوا مزيدًا من الجُهد خلالَ العملِ المتواصلِ؛ فأكسبهم التَّمرينُ الدَّائمُ لعددٍ لا مُتناهٍ من مزهريَّات عجينِ الفخارِ على كسبِ مزيدٍ من المهارةِ في الصُّنعِ. أمَّا المجموعةُ (أ) الخاسرةُ ضيَّعت جُلَّ وقتِها في صنعِ مزهريَّةٍ فخَّارٍ واحدةٍ، ولم تتمرَّن كثيرًا فكانت نتيجتُها النِّهائيَّةُ سيئةً جدًّا، وهكذا كانَ حالي مع مُدقِّقِ اللُّغةِ العربيَّةِ الَّذي نصحني بأن أتريثَ في نشرِ الرِّواية؛ لأكون من أصحابِ الفِئة (أ) الخاسرين بالمباراةِ المدرسيَّةِ لصناعةِ المزهريَّة. إنَّ أموري معسرةٌ، أعرِفُ سوءَ الحظِّ الَّذي أصابني بعد كتابةِ روايتي، فأينما ذهبتُ تُغلقُ الأبوابَ في وجهي، وقد ظللتُ فترة لا بأسَ بها أُقنِعُ نفسي بِعدمِ جدوى المحاولةِ، ولكنْ ذاتَ يومٍ زارني تاجِرٌ قادِمًا من مدينة حلب التِّجاريَّةِ، وكان بيننا تعارفٌ قديمٌ منذُ بدايةِ عملي بالتِّجارةِ، وكُنَّا نتحدَّثُ بِخصوصِ أمورٍ كانت تتعلَّق بِتجارةِ الأواني المنزليَّة، وإذ بي يقدحُ زِناد ذهني بِفكرةٍ أتتْ منَ العقلِ الباطنِ.

وسألتهُ:

-هل تعرِفُ أحدًا بمدينة حلب يُدقِّقُ روايةً أدبيَّةً؟

تعجَّبَ التَّاجرُ الحلبيُّ وسألني هو هذه المرَّة:

-هل تكتُب؟

أجبتهُ:

-نعم.

فكر قليلًا ثُمَّ قالَ:

-لي صديق من أيام المدرسة بِحلب، يملكُ دارَ نشرٍ، وأعتقِدُ أنَّه يتعاملُ مع عددٍ من المُدقِّقينَ اللُّغويينَ، ويجب ألَّا يَغيبَ عن بالك أنَّهم يأخذون أجرَهم على ذلك.

قلتُ للتَّاجر وأنا أكادُ أطيرُ فرحًا وسرورًا:

-لا يهمُّ، المُهمُّ أنْ تساعدَني.

-غالٍ والطَّلبُ رخيصٌ.

ثُم أعطيتهُ الذاكرة الإلكترونية الَّتي تحتوي على نسخةٍ من برنامجِ وورد مِن الرَّوايةِ، وظلَّتِ المخطوطةُ في حقيبةِ الحاسوبِ عندي بخزانةِ البيتِ. أمضيتُ أسبوعًا كاملًا على أحرِّ من الجمرِ مُترقِبًا ما سيسفرُ عنه من نتائج. سبعةُ أيامٍ ولم أتلقَّ الجوابَ من التَّاجرِ الحلبيِّ، ولكن في صباحِ يومِ السَّبتِ، قرَّرتُ أنْ أتَّصلُ بهِ، وتحدَّثتُ معه بنبرةٍ متوجِّسة:

-كيف حالُك يا صديقي؟

-أنا بخيرٍ.

وسألني:

-وأنتَ؟

-وأنا بِخيرٍ أيضًا.

-الحمدُ للهِ.

وسألتُ التَّاجرَ الحلبيَّ:

-ماذا بِشأن الرِّوايةِ؟

-لا شيء.

-كيف لا شيء؟

فقالَ التَّاجرُ الحلبيُّ:

-ألن تغضبَ مني؟

-ولِمِ الغضب لا قدَّر الله؟

-لقد أخبرني صديقي صاحبُ دار النَّشرِ، أنَّ روايتك لا ترتقي إلى مستوى النَّشرِ كروايةٍ.

-لا أستوعِبُ ما تقولُهُ.

أجابَه التَّاجرُ مؤكِّدًا:

-أكَّد لي أنَّهُ يستحيي أن يطبعَ هكذا رواية، وبِحياته المهنيةِ كلِّها لم يقرأ كتابًا رديئًا مثلَهُ.

-ما العملُ؟

-العملُ؟

-أجل.

ردَّ التَّاجرُ:

-صديقي الكاتب. لقد ذهبت إلى دارِ نشرٍ أُخرى، وأكَّدَ لي ما قالَهُ صديقي صاحبُ دارِ النَّشرِ الأولى.

-ألم يعدْ هناك فائدةٌ من روايتي الَّتي أرهقتني كثيرًا؟

-من الأفضلِ أن تصرفَ النَّظرَ عنها.

كادَ رأسي يتصدَّعُ مِنَ الألمِ في تلكَ اللَّحظةِ.

قلتُ للتَّاجرِ:

-أشكرُكَ. وسأُصرِفُ النَّظرَ عنها كما قُلتَ.

وقبل أن أقطعَ الاتِّصالَ معَهُ:

ردَّ التَّاجرُ:

-لديَّ جولةٌ عندكم بدايةَ الشَّهرِ، وسأُعطيك فلاشتَكَ.

ثُم قطعتُ الاتِّصالَ معَهُ دونَ أنْ أردَّ عليهِ.

شعرتُ بأسفٍ شديدٍ على نفسي البائسة. حقًّا إنَّني منحوسٌ إلى أبعدِ ما يتصوَّرهُ المرءُ، والحلُّ الوحيدُ يجب أن أرثي نفسي لقد كانت هذه مُحاولتي الأخيرةُ، وعشتُ لمدَّةِ أسبوعٍ أو أكثر أُمنِّي نفسي بأحلامٍ ورديَّةٍ جميلةٍ، أتصوَّرُ فيها خبرًا سعيدًا بأن الرَّوايةَ قابلةٌ للنَّشرِ، ولكنْ خابَ المسعى معَ هذا الاتِّصالِ معَ صديقي الحلبيِّ، أكثرَ الله خيرَهُ، لأنَّهُ أدَّى واجبَهُ تجاهي، ولكنْ أنا كنتُ سببَ الرَّفضِ، وعدمَ قبولِ الرِّوايةِ للنَّشرِ. أصبحتُ أؤنِبُ نفسي طَوالَ ذلك اليومِ المشؤومِ، وأقولُ لنفسي إنَّكَ لم تُخلق لِتكونَ كاتِبًا، وها هو كلُّ شيءٍ واضحٌ لا لبسَ فيه ولا غموضَ. أنا لا أَصلحُ ككاتبٍ روائيٍّ، وجاءَ التَّاجرُ الحلبيُّ في بدايةِ الشَّهرِ كما وعدَ وسلَّمني الذَّاكرةَ الإلكترونيَّةَ للرِّوايةِ، فشكرتُهُ على ما قامَ بِهِ من أجلي.

يقولون إنَّ الزَّمنَ يداوي أكبرَ الجروحِ والآلامِ، وإنَّ النِّسيانَ يُعدُّ أكبرَ نعمةٍ ينعمُ بها الإنسانُ، ولكنْ عند وقوعِ أحداث

جديدةٍ تظهرُ الذِّكرياتُ من جديدٍ، وتطفو على السَّطحِ، ويبدأ الجرحُ الَّذي اندملَ بالتَّقيُّحِ بعد المُعافاة بالرَّغمِ من مرورِ الزَّمنِ عليه، وكانت مخطوطة الرِّوايةِ معَ الذَّاكرةِ في حقيبةِ الحاسوبِ المحمولِ، وهي قابعةٌ في بطنِ الخزانةِ منذُ مدَّةٍ. كدتُ أنسى أنَّها موجودةٌ أصلًا، إلَّا أنَّ حدثًا حصلَ ذاتَ ليلة حرَّك في داخلي كلَّ الذِّكرياتِ المريرةِ، الَّتي حصلت بشأنِ الرِّوايةِ. لقد ضربَ زلزالٌ بِقوَّةِ سبعِ درجاتٍ على مقياسِ ريختر إحدى الولاياتِ التُّركيَّةِ فوصلَ الزِّلزالُ إلى منطقتِنا بقوَّةِ أربعِ درجاتٍ على مقياسِ ريختر، وكانَ الوقتُ حوالي السَّاعةِ الرَّابعةِ والنِّصفِ من بعدِ منتصفِ اللَّيلِ، ومن شدَّةِ الفزعِ والخوفِ، وما كُنَّا عليهِ من اضطرابِ تركنا بيوتنا وكلَّ ما فيها من محتوياتٍ، هاربينَ إلى خارجِ حدودِ المدينةِ، وتركْنا جميعَ الأبوابِ مفتوحةً، دونَ أن نُفكِّرَ في عواقبِ ذلكَ، وبعدَها بساعاتٍ عديدةٍ عادَ الهدوءُ والأمانُ ثانيةً، حيثُ رجعنا إلى بيوتِنا المهجورةِ، وعندَما تفقَّدْنا الغرفَ جميعًا وجدنا بابَ الخزانةِ مخلوعَ القفلِ، ومن بينِ الأشياءِ الَّتي اختفت عندَ غيابِنا عَنِ

البيتِ حقيبةُ الجهازِ المحمولِ، وفيها مخطوطةُ الرِّوايةِ الورقيةِ بالإضافةِ إلى النُّسخةِ الإلكترونيَّةِ على برنامجِ الوورد وكذلك الذَّاكرةِ الإلكترونيَّةِ، وعندَما اكتشفتُ أنَّها سُرِقتْ لم أتمالك نفسي، فجلستُ على الأريكةِ أندبُ حظِّي التَّعس، وبدأتُ أنشجُ وأبكي حتَّى ساعةٍ مُتأخِّرةٍ مِنَ اللَّيلِ. لقد تجدَّدت آلامي وأحزاني بِغمضةِ عينٍ، حرَّكَها حدثٌ عابرٌ بالرَّغمِ من إغفالي ونسياني لها لفترةٍ طويلةٍ. ها هو لصٌّ قد وضعَ حدًّا لتلكَ الَّتي تعذَّبتْ وعذَّبتني معها، وبعدَها سألتُ نفسي ماذا سيفعلُ اللِّصُّ بها، حتمًا عندما يقرؤها سيرجعُها إليَّ وسيظهرُ أسفَهُ وندمَهُ لأنَّهُ قامَ بِسرقِتها، وسيعتذرُ لفعلتهِ هذهِ، وأنا مُتأكِّدٌ أنَّ اللِّصَّ المسكينَ لن يستفيدَ منها أبدًا، لأنَّها كانت عالةً على نفسِها وعليَّ بالوقتِ نفسِهِ. لكنَّ اللِّصَّ لن يُرجعَ مسروقاتِهِ مهما كانت عديمةَ القيمةِ. أتصوَّرُ الآن أنَّهُ قد قامَ بِبيعِ جهازِ الحاسوبِ، والذاكرةِ من أجل أن يحتفظَ فيها بالأغاني والأفلامِ البوليسيَّةِ، أمَّا بِخصوصِ المخطوطةِ الورقيَّةِ حتمًا سيقوم بِحرقها من أجل ألا ينكشفَ أمرهُ

أمامَ أهلِ بيتِهِ وأصدقائِهِ الحميمينَ، ثمَّ جاءت فترة نسيانٍ ثانيةٌ عليَّ، وكما يقولون: راحتْ أيامٌ وجاءتْ أيامٌ، وكنتُ في ذاتِ يوم ربيعيٍّ أقِفُ أمامَ بابِ الحديقةِ العامَّةِ بمدينةِ القامشلي، أتهيَّأُ لدخولِ الحديقةِ للتَّنزُّهِ، وإذا عربةُ بائعِ الموالحِ تقِفُ بجانبي. اشتريتُ بعضًا مِنَ الموالحِ في مخروطٍ ورقيٍّ، ثُمَّ جلستُ على أحدِ الكراسي الخشبيَّةِ بالحديقةِ، وبعدَ أن انتهيت من تلكَ البذورِ. ظلَّ القمعُ الورقيُّ بيدي فتحتُهُ وإذ بي أتفاجئُ أنَّها كانت إحدى الصَّفحاتِ الَّتي قُطِعت من مخطوطةِ الرِّوايةِ المسروقةِ. صدقًا أحسستُ كأنَّهُ تجدَّدَ الزِّلزالُ مرَّةً أخرى، ودمعتْ عينايَ وانهمرتْ منهما الدُّموعُ سيولًا على صفحةِ وجهي، ولكن يبدو أنَّ قدري معَ الزَّمنِ الشَّافي، أن يُجدِّدَ آلامي وأحزاني الرَّاكدةِ. بالرَّغمِ من نعمةِ النِّسيانِ الَّتي يتمتعُ بها الإنسان، ولكنَّ الأحداث المُتتاليةَ لا تتركُ الإنسانَ مرتاحًا. ما كنتُ أرتاحُ حتى أتألمَ. ما كنتُ اطمئنُ حتى أيأسَ. ما كنتُ أنسى حتَّى أتذكَّرَ. ووسط هذه الدَّوامةِ القاتِمةِ

فقدتُ روايتي وإلى الأبدِ، وقد ماتت بِمهدِها ولم يشرقْ عليها النُّورُ.

وبالرَّغمِ من جميعِ الصُّعوباتِ الَّتي اعترضت طريقَ الكاتبِ عبد الغفار عيد إلَّا أنَّهُ انتصرَ على نديمِهِ التَّاجرِ عبد الغفور عيد، ووضع حدًا للجدلِ الدَّائرِ حول الصِّرعاتِ الدَّاخليَّةِ الَّتي نشبت ما بينَ شخصيَّةِ الكاتبِ الدَّخيلةِ وشخصيَّةِ ذلكَ التَّاجرِ الدَّاهيةِ الَّذي بنى ثروته الماليَّةَ الضَّخمةَ من لا شيءٍ، وأخيرًا يصبحُ عبد الغفَّار عيد بنهايةِ عمرهِ كاتبًا، ولكنَّهُ بالرَّغمِ من ثرائِهِ الفاحشِ فقد عاشَ ما تبقَّى من حياتِهِ فقيرًا مُعدِمًا.

لقد أنهيتُ كتابةَ ذكرياتي ككاتبٍ، ولملمتُ أوراقيَ المُبعثرةَ من على طاولةِ كافتيريا التَّصفيةِ، ونظرتُ إلى جميعِ الأشياءِ الَّتي كانت تُحيطُ بي نظرةَ المودِّعِ، وقرَّرتُ عدم الرُّجوعِ إلى ذلك المكانِ أبدًا، وأنا أتخيَّلُ الرِّوايةَ المسروقةَ. وشكرًا لكم.

موجزُ الرِّوايةِ المسروقةِ

الفصلُ السَّادسُ

زيارة الكاتب

كانت زيارةُ الكاتبِ إلى حديقةِ الحيواناتِ فضوليَّةً، ليرى هناك أصنافًا مُختلفةً كالنَّعامةِ والفيلِ والأسدِ والثَّعلبِ والزَّرافةِ، وجميعِ أنواعِ الدَّجاجِ البريِّ والدُّيوكِ البريَّةِ الضَّخمةِ، وكانَ هناك قردٌ وحيدٌ يقبعُ في قفصٍ حديديٍّ مُغلقٍ.

أحبَّ الكاتبُ ذلكَ القردَ وقدَّمَ إليهِ بذورَ دوارِ الشَّمسِ، وأصبحَ هناك نوعٌ مِنَ الصَّداقةِ والمودَّةِ بينَ الكاتبِ والقردِ.

الفصلُ السَّابعُ
الهجرةُ الجماعيَّةُ

هاجرَ النَّاسُ البلدَ زَرافاتٍ ووحدانًا بسببِ مرضٍ ألمَّ بهم، وكانت أعراضُ هذا الدَّاءِ المنتشرِ بِكثرةٍ بين الناس، شحوبًا ظاهرًا يُصاحبهُ هُزالٌ شديدٌ، لا يقوى المرءُ على حملِ كتلةِ جسدِهِ بِسببِ انعدامِ النَّشاطِ والحركةِ لدى الشَّخصِ المُصابِ، وإذا لم يُعالجْ هذا الدَّاءُ المستفحلُ بينَ النَّاسِ فقد يصِلُ بالمريضِ إلى حالةِ نزيفٍ حادٍّ يصعبُ شفاءُ المريضِ منه، فمصيرهُ حتمًا الهلاكُ والموتُ المُحتَّمُ، ويجب ألَّا ننسى عاملًا آخرَ إلى جانبِ عاملِ المرضِ، وهو الحربُ الدَّائرةُ الَّتي أدَّت إلى فرارِ كُلِّ أهلِ البلدِ، ونتيجة الهجرةِ الجماعيَّةِ لم يبقَ هناك سوى الكاتبِ.

الفصلُ الثَّامنُ
العودةُ إلى حديقةِ الحيواناتِ

قامَ الكاتبُ مرَّةً ثانيةً بالعودةِ إلى حديقةِ الحيواناتِ، وهناك مُجدَّدًا بدأَ يبحثُ بين جنباتِ الحديقةِ الفارغةِ من الحيواناتِ، فلمْ يجدْها؛ فاعتقدَ أنَّها مثلُ بني البشرِ قد هاجروا جميعًا إلى دولٍ أخرى؛ خوفًا على حياتِهم من تلكَ الحربِ الدَّائرةِ الَّتي طالَتْ عليها السَّنواتُ، وذلك المرضِ الخطيرِ، ومن أجلِ البحثِ عن أمنٍ وسلامٍ، وسعيًا لمصدرٍ للرزقِ والعيشِ الكريمِ بعد فقدِهما هنا.

فتوجَّهَ الكاتبُ على الفورِ إلى ذلكَ القفصِ الحديديِّ المُغلقِ فوجدَ صديقهُ القردَ ما زالَ قابعًا هناكَ كما وجدَهُ في المرَّةِ الأولى من زيارتِهِ إلى حديقةِ الحيواناتِ، وفي هذهِ المرَّةَ أخذهُ معَهُ.

الفصلُ التَّاسعُ
توثيقُ عُرى صداقةٍ

عادَ الكاتبُ من زيارتِهِ الثَّانيةِ لحديقةِ الحيواناتِ، مصطحبًا معهُ صديقَهُ القردَ الوحيدَ إلى المدينةِ الخاليةِ من سكَّانِها البشرِ، وأخذَهُ إلى بيتِهِ ليعيشا معًا مُحقِّقًا بذلكَ توثيقَ عُرى الصَّداقةِ.

الفصلُ العاشرُ
تعليمُ القردِ

بدأَ الكاتبُ يُلقِّنُ القردَ مبادئَ التَّعليمِ الأساسيَّةِ، فذهبا إلى مدرسةٍ قريبةٍ من بيتِ الكاتبِ، وقامَ الكاتبُ بتعليمِ القردِ منهاجَ الصَّفِّ الأوَّلِ وما يتضمَّنُهُ مِنَ الكتابةِ والقراءةِ والحسابِ، وأتقنَ التِّلميذُ الجديدُ تلكَ المقرراتِ بسرعةٍ فائقةٍ.

الفصلُ الحادي عشر
المشاركةُ بالعملِ

تمكَّنَ القردُ المُتعلِّمُ ذو الشَّخصِّيَّةِ الجديدةِ، وهو يشاركُ معلِّمهُ الكاتبَ القيامَ بجميعِ الأعمالِ الخدميَّةِ والمنزليَّةِ مِنَ الطَّهيِّ وتجهيزِ الوجباتِ الغِذائيَّةِ الثَّلاثِ وانتهاءً بزراعةِ الأرضِ وتسميدِها وعمليَّةِ عزقِ النِّباتاتِ الضَّارَّةِ وصيانةِ الكُهرباءِ.

الفصلُ الثَّاني عشر
كيفيةُ استخدامِ السِّلاحِ

بدأَ الكاتبُ يُعلِّمُ صديقَهُ القردَ كيفيَّةَ استخدامِ السِّلاحِ، والغايةَ منه الدِّفاعُ عَنِ النَّفسِ. وكانت النَّتيجةُ إتقانَ التَّلميذِ استخدامَهُ على أكملِ وجهٍ، وخرجَ من دورةِ تعليمِ السِّلاحِ بِدرجةِ عشرةَ على عشرةٍ.

الفصلُ الثَّالثَ عشرَ
الاستقلالُ المُنتظرُ

جاءَ يومُ الاستقلالِ المنتظرُ، حيثُ استقلَّ التِّلميذُ القردُ عن معلِّمهِ الكاتبِ في كُلِّ شيءٍ، وسكنَ القردُ بحيٍّ آخرَ يجاورُ حيَّ الكاتبِ، وأصبحَ الاثنانِ يعيشانِ منفصلينِ عَنِ الآخرَ.

الفصلُ الرَّابعَ عشرَ
خِلافٌ حادٌّ بينَ الطَّرفينِ

قامَ القردُ بِزراعةِ الأرضِ، وبدأَ بتوسيعِ سلسلةِ مشاريعِهِ، حتَّى وصلت حدودُ ممتلكاتِهِ إلى حدودِ ممتلكاتِ جارِهِ الكاتبِ، وتشابكَتْ ملكيَّةِ العقاراتِ العديدةِ معًا، فأدَّت النِّزاعاتُ المُتكرِّرةُ بينهما إلى نشوبِ خِلافٍ حادٍّ بين الطَّرفينِ.

الفصلُ الخامسَ عشرَ
أرداهُ قتيلًا على الفَورِ

تمنطقَ القردُ بِمُسدسِهِ وقرَّرَ الذَّهابَ متوجِّهًا إلى الكاتبِ. من أجلِ حلِّ الخلافاتِ والمشاكلِ على ملكيَّةِ العقاراتِ المتداخلةِ. إلَّا أنَّ المعلِّمَ أهانَ تلميذَهُ وأسمعَهُ كلماتٍ قاسيةً؛ أنتَ جشعٌ وطمَّاعٌ، أنتَ ناكرٌ للجميلِ، وأنت أحمقُ وغبيٌّ. وتتالى موجةُ الكلماتِ التَّعسفيَّةِ وتطولُ إلى ما لا نهاية، وبالتَّالي فإنَّ للصَّبرِ حدودٌ، كما يقولونُ. والكائنُ الحيُّ مهما كانَ يحملُ نزعةً قويَّةً مِنَ العدوانِ في داخلِهِ، ومهما كانَ عاقلًا، فإنَّهُ يُخرجِها دفعةً واحدةً، ثُمَّ فقدَ القردُ وعيْهَ، وما لبِثَ أن سحبَ مسدسَهُ المحشوَ بالطَّلقاتِ العديدةِ، وقامَ بإفراغِ جميعِها دفعةً واحدةً في جسدِ مُعلمِهِ الكاتبِ، وأرداهُ قتيلًا على الفورِ.

ومهما تجدَّدتْ أشكالُ الحياةِ على هذهِ الأرضِ، فسيبقى القتلُ والظُّلمُ والعدوانُ والدَّمارُ والحقدُ والحسدُ والطَّمعُ والجشعُ والنَّهبُ والسَّلبُ مُلازِمينَ جميعَ الكائناتِ الحيَّةِ الَّتي تحيا عليها.

كانَ هذا موجزَ الرِّوايةِ المسروقةِ، ولذلك حسبَ العُرفِ المُتعارفِ عليه بينَ البشرِ والَّذين يعملونَ بهِ؛ أنَّه إذا ما ماتَ لهم ولدٌ أو ماتَ قريبٌ عزيزٌ فإنَّهم يُسمُّونَ الولاداتِ الجديدةَ لهم على أسماءِ الَّذينَ رحلوا من أحبَّائهم عن هذهِ الحياة، تخليدًا لِذكراهم في قلوبِهم المفجوعةِ والممتلئةِ بالحزنِ والأسى على فقدانِهم الأبديِّ، ولذلكَ سأقومُ أنا أيضًا باتِّخاذِ تلكَ الخطوةِ المُشابهةِ في تخليدِ الأسماءِ، وسأُطبِقُها على روايتي الَّتي سُرِقَتْ في اليومِ الَّذي وقعَ فيهِ الزِّلزالُ الأخيرُ، وأصبحَتْ فيما بعدُ أقماعًا مخروطيَّةً من أجلِ تعبئةِ الموالحِ، وسأسمِّيها بدلًا من كافيتريا التَّصفيةِ باسمِ الرِّوايةِ المسروقةِ، فقط تخليدًا لِذكراها الأبديِّ. وشكرًا لكم.

تـمَّت

جنكو تـمَّو

قراءةٌ في روايةِ (الرِّوايةُ المسروقة) للكاتبِ جنكو صالح تـمُّو

تتألَّفُ الرِّوايةُ منْ خمسةَ عشرَ فصلاً، ولكلِّ فصلٍ عنوانٌ مستقلٌّ، ويمكنُ تقسيمُ الرِّوايةِ إلى جزأينِ، الجزءُ الأوَّلُ أحداثٌ تدورُ في **كافتيريا التَّصفيةِ**، أمَّا الجزءُ الثَّاني فهو الَّذي أخذت الرِّوايةُ منهُ عنوانَها (**الرواية المسروقة**)، فقدْ وظَّفَ الكاتبُ حدثًا واقعيًّا مهمًّا جرى في بيئتِهِ، وهو الزِّلزالُ المدمِّرُ الَّذي ضربَ تركيا والمناطق الشِّماليَّةَ منْ سوريةَ، وبهذهِ الطَّريقةِ يؤكِّدُ الكاتبُ على نقطةٍ مهمَّةٍ في النِّقدِ الحديثِ، وهي أنَّ ما يجري في الرِّواياتِ من أحداثٍ، وإنْ كانَتْ واقعيَّةً إلَّا أنَّهُ ليسَ بالضَّرورةِ أنَّها قد حدثَتْ فعلاً مَعَ الأديبِ، وإنَّما يحوِّل الكاتبُ هذهِ الأحداثَ مستعينًا بمهاراتِهِ الفنِّـيَّةِ وما يمتلكُهُ من براعةٍ بأنْ يشعرَ القارئَ بواقعيتِها، وهذا الأمرُ ينطبقُ على الشَّخصيَّاتِ وأسماء الأماكنِ في الرِّوايةِ.

وتتجلَّى تجربةُ الكاتبِ الأدبيَّةُ والفنِّـيَّةُ في توظيفِهِ لتقنيَّاتِ السَّردِ والخطابِ القَصصيِّ، والغموضِ الَّذي سيطرَ على شخصيَّةِ

البطلِ وهواجسِهِ الدَّاخليَّةِ من خلالِ الحواراتِ والأسئلةِ الَّتي تمنحُ الحيويةَ للرَّوايةِ وتدفعُ القارئَ للالتحامِ معَ شخصيَّاتِها، كما يستثمرُ الكاتبُ موضوعاتٍ إنسانيَّةً ساميَّةً تهدفُ إلى تطويرِ الإنسانِ في مجتمعهِ، فهو يسلِّطُ الضَّوءَ على الإنسانِ السُّوريِّ، وسلوكِهِ، وعلاقاتِهِ في ضوءِ ما تشهدُهُ البلادُ من حروبٍ وصراعاتٍ.

إنَّ شخصيَّةَ البطلِ **"عيد"** شخصيَّةٌ مركبةٌ متعدِّدةُ الأفكارِ والتَّجاربِ، وقد حافظَ الكاتبُ على عنصرِ الإثارةِ حينَ اختارَ هذا العنوانَ للرِّوايةِ، وبذلكَ استطاعَ أن يضعَ القارئَ في حالةٍ منَ التَّرقُّبِ والتَّشوُّقِ. فأهمُّ ما يميِّزُ **(الرِّوايةَ المسروقةَ)** هو عنصرُ التَّشويقِ، وتتابعُ الأحداثِ وتسلسلُها الفنِّيُّ، فالقارئ وهو يقرأُ الرِّاويةَ بدءاً من عنوانِها في الغلافِ مرورًا بالفصولِ وصولًا إلى نهايةِ الرِّوايةِ يتلهَّفُ لمعرفةِ الحدثِ التَّالي أو مصيرِ هذهِ الشَّخصيَّةِ أو تلكَ، ويُضافُ إلى ميزاتِها عنصرُ المفاجأةِ، ففي بدايةِ الرِّوايةِ نحنُ أمامَ شخصٍ واحدٍ، ثمَّ نفاجأُ بطلبِ الرَّجلِ الخمسينيِّ

لأربعةِ كراسيّ في الكافتيريا معَ العلمِ أنَّهُ شخصٌ واحدٌ، وهذا الطَّلبُ كانَ مستغربًا من شخصيَّاتِ الرِّوايةِ أيضًا. وقد استطاعَ الكاتبُ الإفادةَ مِنَ الوقائعِ التَّاريخيَّةِ والاجتماعيَّةِ في بيئتهِ ليضفي عليها بأسلوبِهِ الرِّوائيِّ وخيالِهِ الواسعِ ميزةً فنِّـيَّةً. أمَّا عناوينُ الفصولِ فتمتازُ بالوضوحِ والإيجازِ وقصرِ العبارةِ، وهي معبرةٌ عن مضمونِ الفصلِ ومجرياتِ أحداثِهِ.

وتتجلَّى في الرِّاويةِ ثقافةُ الكاتبِ المتنوعةُ في مجالِ الطِّبِّ، والاقتصادِ، وعلمِ النَّفسِ، والثَّقافةِ العامَّةِ، ويغلُبُ على أسلوبِ الكاتبِ الجملُ الطَّويلةُ والمركبةُ لغةً وفكرًا.

وهذا الأسلوبُ الفنِّيُّ والطَّريقةُ المتميِّزةُ في الكتابةِ تخوِّلُ كاتبَها لأنْ يكونَ واحدًا من الكتَّابِ والرِّوائيينَ المميَّزينَ.

بقلم: د. بسام جميل

bassamjameel1@gmail.com

الفهرس

الفصلُ الأوَّل: كافيتريا التَّصفية	7
الفصلُ الثَّاني: عبد الرحمن عيد	19
الفصلُ الثَّالث: عبد الرحيم عيد	73
الفصلُ الرَّابع: عبد الغفور عيد	100
الفصلُ الخامس: عبد الغفَّار عيد	158
الفصلُ السَّادس: زيارة الكاتب	186
الفصلُ السَّابع: الهجرة الجماعيَّة	187
الفصلُ الثَّامن: العودة إلى حديقة الحيوانات	188
الفصلُ التَّاسع: توثيق عُرى صداقة	189
الفصلُ العاشر: تعليم القرد	190
الفصلُ الحادي عشر: المشاركة بالعمل	191
الفصلُ الثَّاني عشر: كيفية استخدام السِّلاح	192
الفصلُ الثَّالث عشر: الاستقلال المنتظر	193
الفصلُ الرَّابع عشر: خِلاف حاد بين الطَّرفين	194
الفصلُ الخامس عشر: أرداه قتيلًا على الفور	195
قراءةٌ في روايةِ (الرِّوايةُ المسروقة) للكاتبِ جنكو صالح تمُّو	197

ثمَّةَ عُرفٌ مُتعارفٌ عليهِ بينَ البشرِ ويعملونَ بهِ، وهو أنَّهُ إذا ما ماتَ لهم ولدٌ أو ماتَ قريبٌ عزيزٌ فإنَّهم يُسمُّونَ الولاداتِ الجديدةَ لهم على أسماءِ الَّذينَ رحلوا من أحبَّائهم عن هذهِ الحياة؛ تخليداً لِذكراهم في قلوبِهم المفجوعةِ والممتلئةِ بالحزنِ والأسى على فقدانِهم الأبديِّ، ولذلكَ سأقومُ أنا أيضاً باتِّخاذِ تلكَ الخطوةِ المُشابهةِ في تخليدِ الأسماءِ، وسأُطبِقُها على روايتي الَّتي سُرِقَتْ في اليومِ الَّذي وقعَ فيهِ الزِّلزالُ الأخيرُ، وأصبحَتْ فيما بعدُ أقماعاً مخروطيَّةً من أجلِ تعبئةِ الموالحِ، وسأسمِّيها بدلاً من كافيتريا التَّصفيةِ باسمِ الرِّوايةِ المسروقةِ، فقط تخليداً لِذكراها الأبديِّ. وشكراً لكم.

تصميم وتنضيد: مكتب الرائد
Dr.Bassam Jamil
00963930035754